٩١. لم حرم الإسلام لحوماً معينة، وهل لذلك حكمة؟

بين العباد وربهم عقود تتصل بحقوقه جل شأنه ، أو تتناول علاقة بعضهم ببعض ، وقد تتناول علاقاتهم بالكون المسخر لهم ، والأحياء التى ذللها لمنافعهم . .

وقد أمر المؤمنين برعاية هذه العقود والإحساس بحرمتها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[1] .

وما يتلى عليهم أربعة أنواع على الإجمال ، وعشرة على التفصيل ذكرت فى قوله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[2] .

والتحريم مشروع هنا لمصالح الناس ، والحفاظ على صحتهم ، ولا يقال : إن الناس تأكل الخبائث ولا يصيبها ضرر ظاهر ، أو أن الجماهير تشرب الخمر والدخان والمخدرات ويتأخر اعتلالها ، أو تكون وعكاتها خفيفة ، إن هذا الكلام مردود ، إذ إن التحقيق العلمى أثبت أخطار هذه السموم ، وإذا كان البعض ينجو منها فلأسباب غير مطردة . . والواجب أن تتنزه الجماهير عن أكل هذه المحرمات ، فرارا من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة . .

أول هذه المحرمات «الميتة» وهى الحيوانات أو الطيور التى تموت حتف أنفها ، ويغلب أن يكون هلاكها لمرض باطن بها ، وليست الأسماك التى تموت بعد خروجها من الماء من صنف الميتة ، بل هى لحم حلال . .

ثم الدم ، أى المسفوح الذى يسيل من عروق الذبيحة ، لا يجوز تجميعه وطبخه .

ولحم الخنزير لقذارته واحتوائه على جراثيم وديدان خبيثة! ولحم الخنزير محظور فى الأديان الأولى كما هو واضح فى تعاليم العهد القديم ، وقد أباحه «بولس» ولا ندرى لماذا؟ مع أن شرائع العهد القديم ملزمة للنصارى . .

(١) المائدة : ١ .

(٢) المائدة : ٣ .

وما أُهلَّ لغير الله به ، وهذا تحريم تعبدى محض ، والمقصود قطع دابر الوثنية ومايمت إليها بصلة! فما ذبح مقترنا باسم صنم أو بأى اسم آخر غير اسم الله حرم أكله . .

والأصل فى الذبح أن يكون باسم الله الذى سخر وأباح ، قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[2] . .

ويرى فريق من الفقهاء أن ذكر الاسم الكريم مستحب وليس فرضا ، فذكر الله مستكن فى قلب كل مسلم وإن لم يجر على لسانه ، وإنما يوصف المذبوح بأنه فسق إذا ذكر عليه غير اسم الله ، وقد اعتمد هؤلاء فى فهمهم على سنن واردة!

وهنا قضية أخرى : هل ذبائح أهل الكتاب باسم الصليب أو باسم الكنيسة تندرج فى هذا التحريم ، وتعد مما أُهلَّ لغير الله به؟ يرى ذلك جمهور الفقهاء .

ومن رجال المذاهب من يخص العموم هنا بإباحة طعام أهل الكتاب التى قررت فى آية أخرى ، وهو استدلال قد يقبل ، وإن كنت أعاف الأكل من ذبيحة على هذا النحو! ولكنى لا أعيب الآكلين . .

ومن أنواع الميتة المحرمة «المنخنقة» وهى التى شنقت نفسها أو شنقها غيرها بأن لف حبلها حول عنقها حتى طاحت .

و «الموقوذة» وهى التى ظلت تضرب حتى هلكت سواء كان بعصا أو بما أشبه بالعصا . .

و «المتردية» وهى التى هوت من مكان عال ، أو داخل حفرة ، ففقدت حياتها . .

و «النطيحة» وهى التى ماتت فى صراع مع حيوان آخر ظل ينطحها حتى أهلكها .

«وما أكل السبع» التى عدا عليها وحش مفترس فأعطبها ، فإذا أدرك المرء بهيمة من هذه الخمسة الأخيرة ، ولاتزال بها حياة ، فذبحها حتى سال منها الدم ، جاز أكلها ، مادام قد رأى أن ذبحه هو الذى أجهز عليها . .

أما «ما ذبح على النصب» فهو من قبيل ما أُهلَّ لغير الله به ، والنُّصُب شاخص يقيمه الناس لمعنى يتواضعون عليه ، كالنصب التذكارى للشهداء ، أو للجندى المجهول مثلا . .

والذبح عند نصب قائم أو ضريح يزار نوع من الوثنية يأباه الإسلام ، وتحرم به الذبيحة . .

(١) الأنعام : ١١٨ .

(٢) الأنعام : ١٢١ .

إن الله الذى خلق كل شىء هو الذى سخر لبنى آدم بعض مخلوقاته منها ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(1) ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(2) . .

وللنباتيين رأى فى ترك اللحوم كلها لا تقرهم الأديان عليه ، ولا أعرف شريعة سماوية حظرت ذبح الحيوان . .

ومادام الله هو الذى أحل فينبغى التزام الأسلوب الذى قرره فى الارتفاع بهذه الذبائح ورفض ما عداه .

والمحرمات التى أحصيناها هنا تكرر ذكرها فى أربعة مواضع من القرآن الكريم على طريق القصر والحصر ، مما يجعلنا نعد ما ورد من نهى عن أكل غيرها من قبيل الكراهية ، وفى ذلك خلاف فقهى معروف . .

وقد أطال صاحب المنار فى التعليق على تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، واقترب من مذهب مالك رضى الله عنه ، ولا نقحم أنفسنا فى هذا الميدان ، وإنما يُلفت النظر إلى أن نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام قد بعث بتحليل الطيبات وتحريم الخبائث! ونحن نجزم بأن ما نص الشارع على تحريمه فهو من الخبائث . . فما الرأى فيما لم يتناوله الكتاب بنص ؟ . .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : «مالا نص فى الكتاب على حله أو حرمته قسمان : طيب حلال ، وخبيث حرام . وهل العبرة فى التمييز بينهما ذوق أصحاب الطباع السليمة ، أو يعمل كل أناس بحسب ذوقهم؟ كل من الوجهين محتمل . . والموافق لحكمة التحريم الثانى ، وهو أنه يحرم على كل أحد أن يأكل ما تستخبثه نفسه وتعافه ، لأنه يضره ولا يصلح لتغذيته . ولذلك قال بعض الحكماء : ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك! . .»

ونحن نرى أن الاستعانة بعلم «التغذية» وما وصل إليه الأخصائيون فى علوم الأحياء مطلوبة ، ولعل ذلك يميز الخبيث من الطيب . . على أننا نرفض كل احتيال على إهمال النص ، فإن الإسلام حرم الخنزير مثلا لوساخته وحمل لحمه لمصادر البلاء! فإذا جاء اليوم من يقول : إنه ربَّى خنازير معينة على مراع حسنة واتخذ ضمانات لإنقاء لحمها من مصادر العلل ، لم نقبل قوله ، ولم نستبح الحرام! . . . إن ذلك يشبه ما

(1) المؤمنون : 21 . (2) غافر : 79 .

تزعمه شركات التبغ من أن «الفلتر» الذى تضعه فى سجائرها يمنع القطران من تلويث الرئة . . ما أغنانا عن هذا كله ، وفى الحلال الكثير الميسور مايغنى عن هذه الحيل . .

ولا يجوز تعذيب الحيوان عند ذبحه ، وأفضل طرق التذكية ما يخفف على الحيوان خروج روحه ، وقد رأى فقهاؤنا القدامى أن يكون الذبح بقطع الحلقوم والمرىء والودجين - عرقان على صفحتى العنق - أو أكثر ذلك ، لتتم تنقية البدن من الدم الكائن فيه! يقول صاحب المنار : «إن هذا لتحكم فى الطب والشرع بغير بينة ، ولو كان الأمر كذلك لما أحل الصيد الذى يأتى به الجارح ميتًا» . .

ثم يقول : «وإنى أعتقد أن النبى ﷺ لو اطلع على طريقة للتذكية أسهل على الحيوان ، ولا ضرر فيها كالتذكية بالكهربائية» (!) إن صح هذا الوصف لفضلها على الذبح ، لأن قاعدة شريعته أنه لا يحرم على الناس إلا ما فيه ضرر لأنفسهم أولغيرهم من الأحياء . .

ولا أعرف الطريقة التى يومئ إليها الشيخ رشيد! وقد عرفت أن مصانع اللحوم البقرية تضرب البهيمة قبل ذبحها ضربة تخدر أعصابها ، ثم تقطع الرأس ، وتمضى فى تهيئة اللحم لآكليه ، قد تكون الصدمة التى تذهب بإحساس البهيمة ولا تذهب بحياتها مشبهة للمخدر الذى يتناوله المريض قبل جراحة يجريها الأطباء ولا شىء فى ذلك بداهة . .

بيد أن أعدادًا من الغربيين والشرقيين يخنقون الطيور ، أو يجهزون على حياتها بوسائل همجية أقسى من الذبح ، وإن كانوا يعيبون الذبح! وذلك ماتأباه الشريعة الإسلامية .

ذلك ، وقد عطف القرآن الكريم على الطيبات المباحة مثل لحوم الصيد ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(1) .

والصيد كما يكون بالكلاب المدربة والبزاة والصقور يكون بالأسلحة الفاتكة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾(2) .

وفى عصرنا هذا اختفت الرماح والسهام لتحل محلها الأسلحة النارية التى تقتل الصيد أو تصيبه بجراح مجهدة . وعند إدراكه حيا ينبغى أن يذبح الذبح الشرعى المعهود ، وإلا فإن موته بأى أداة من أدوات الصيد السابقة يعتبر ذكاة له . .

(1) المائدة : 4 . (2) المائدة : 94 .

وليس الصيد مسلاة لطلاب اللهو وهواة قتل الحيوان ، بل هو مصدر من مصادر التغذية التي كان الناس ، ولا يزالون في بعض البيئات يحتاجون إليها . .

والصائد يذكر اسم الله عندما يرسل كلبه ، أو يطلق رصاصه ، وروى ابن جرير : «إذا أرسلت جوارحك فقل باسم الله ، وإن نسيت فلا حرج ، أي إن عدم الذكر لا يحرم الصيد» . .

وروى البخارى أن قوما قالوا : يارسول الله ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى! ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : **سموا عليه أنتم وكلوا** . . قال : وكانوا حديثى عهد بكفر . .

تابعت عن كثب النقاش الحاد الذى دار حول ذبائح أهل الكتاب وغيرهم من الأمم ؛ وكان الناس يطلبون رأيى فأقول فى قلة اكتراث : من شاء أكلها مهما كانت طريقة ذبحها ، ومن شاء تركها ، واستعاض عنها بما يحب! . . وألح علىَّ بعض الإخوة أن أدلى برأيى فى القضية . . فلم أر بأسا من نقل وجهات النظر فيها مع تعليق لابد من إثباته . .

يقول الشيخ عبدالله بن زيد رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر : «كل ذبيحة من حيوان ، أو دجاج تجلب إلى الناس وهى مجهولة ، لا يعلم من ذبحها ولا كيف ذبحها ، فإنها تندرج فى عموم الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنهم قالوا : يارسول الله إن قوما حديثى عهد بجاهلية يأتوننا باللحم ، لا ندرى! ذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال : «**سموا الله أنتم وكلوا**» . .

وقد أباح القرآن ذبائح أهل الكتاب بدون قيد ولا شرط ، وما سكت القرآن عن تحريمه فهو حلال لقول رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم، غير نسيان، فلا تبحثوا عنها**» . .

قد يقال : إننا نعلم بيقين أن من أهل الكتاب من يذبح باسم الصليب ، أو من يخنق الطيور ، أو من يهوى بمثقل على أم رأس الحيوان فيقتله ، فكيف نطعم شيئًا من ذلك؟ . .

قلت للسائل : هذا بحث قديم ، وقد اختلف الفقهاء فيه ، فمنهم من أدرج هذه الصور المحكية تحت عنوان «ما أهل لغير الله به» أو تحت عنوان (المنخنقة) أو تحت عنوان «الموقوذة» . . واستثناها من ذبائح أهل الكتاب المباحة . . ومن الفقهاء من جعلها من ذبائح أهل الكتاب المباحة بالنص ، واستثناها من المحرمات السابقة ، وقال : الله أعلم - إذ أباح أطعمتهم - ما يقولون وما يفعلون . . من هؤلاء الفقهاء مالك رحمه الله فقد جاء فى «المدونة» أنه سئل عما ذبحوه للكنيسة أو غيرها ، فقال أكره ذلك ولا أحرمه!

إن الله أباح لنا ذبائحهم وقد علم ما يفعلونه . وقال القاضى ابن العربى المالكى فى كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾[1] . . قال : وسئلت عن النصرانى يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها هل يجوز أن نأكل معه منها ؟ فقلت : نعم كلوا منها ، فإنها طعام أحبارهم ورهبانهم ، وإن لم تكن هذه الطريقة ذكاة عندنا . . ولكن الله أباح لنا طعامهم مطلقاً» . .

الخلاف الفقهى قديم كما نرى ، والأساس الشرعى لكل مذهب قائم ، من شاء تبع هذا فأكل ولا حرج ومن شاء تبع هذا فامتنع ولا حرج . . ولا أشتغل بمزيد من عرض الأدلة المتقابلة لا تأييدًا ولا تفنيدًا ، فوراء هذه القضية أمر آخر يتصل بالسلوك الإسلامى العام ، أو يتصل بحاضر المسلمين ومستقبلهم لماذا يستورد المسلمون هذه الذبائح من أنعام وطيور ؟ . . لماذا عجزوا عن تنميتها وتكثيرها فى بلادهم؟ هل تربية الأبقار والدجاج تحتاج إلى أخصائيين فى علوم الذرة؟ وعندما تصاب قدرات المسلمين بالشلل فى مجال الثروة الزراعية والحيوانية فهل ينتظر لهم تفوق أو نجاح فى الميادين الأخرى ، برًا وبحرًا وجوًا؟ إن الحماس فى عالم الجدل مرض عفن إذا صحبه برود فى عالم الإنتاج . . وقد رأيت التدين التقليدى يتسم بهذه الخاصة المزعجة ، قصور فى فهم أو فى عرض وجهات النظر المختلفة ، ثم تراشق بالتهم ، وتبادل لسوء الظن . . فإذا تطلب الإيمان ضرورة اكتفاء الأمة بمواردها ، واستغنائها عن سواها تبخر الحماس ، وخلا الميدان . . لست من هواة التغلغل فى الفروع الفقهية ، فإن أصول العقيدة والأخلاق والتشريع تهمنى وتستغرق وقتى . وما أنظر فى الأمور الفرعية إلا بمقدار ما أجمع به الشمل وأمنع الفرقة وأقصى المتزمتين والمعلولين عن أماكن الصدارة . .

إن حاجة المسلمين إلى القمح لصنع الرغيف ، أو إلى الدواء لعلاج العلل ، أو إلى اللحوم ميتة أو حية شىء - فى نظرى يهدد عقائدهم ذاتها ، ويجعلهم يعيشون عالة على أهل الأرض . .

فهل نوجه قدرتنا على الكلام والاعتراض إلى عمل إيجابى؟ أم تبقى مهمة بعض المتدينين الطعن فى الدواء ؛ لأنه ذائب فى «الكحول» ورفض اللحم المستورد لأن ذكاءه موضع ريبة؟ . ثم ينتهى دورهم! . . إننى أقدر النية الحسنة لكل من شارك فى هذا البحث . ولكن الطريق لما يمهد بعد لعمل جاد تتحرك به أمة كسول! .

(1) المائدة : ٥

٩٢. هل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟

لست بعيدًا عن هذا الميدان ، بل أحسبنى واحدًا من الكادحين فى جنباته . لقد تلقيت العلم على مجاهدين ذوى صلابة ، ثم قمت بتعليم شباب سبقونى سبقًا بعيدًا فى إحراز الرضوان الأعلى ، لأنهم ماتوا شهداء فى سبيل الله . .

إننى لمست بيدى صحوة الإسلام فى هذه الأيام ، وصافحت بحرارة وحب رجالاً يقاتلون عن بقايا الإسلام فى «الفلبين» على شواطئ الهادى ، ورجالاً آخرين يحرسون مواريث الإسلام على شواطئ الأطلسى . . وبين الشاطئين المتباعدين قامت مدارس تجاهد بالقلم وكتائب تجاهد بالسلاح ، تذود الغزوين الثقافى والعسكرى عن أراضٍ فيحاء نام ساستها حينا من الدهر ، فدفعوا ثمن نومهم ذلا فادحا واستعمارًا فاضحًا . .

إن الصحوة الإسلامية حقيقة قائمة! ولكن الإعداد لسحقها وتبديدها حقيقة أبرز للعين وأرهب للنفس . .

والمستشرقون الأوربيون يعرفون طبيعة الإسلام ، ويرصدون تاريخه القديم والحديث بعينى ذئب جائع وتدبر قول المستشرق الألمانى «باول شمتز» فى كتابه «الإسلام قوة الغد العالمية» الذى صدر من نصف قرن تقريبًا : «إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوربا وهتاف يجوب آفاقها ، يدعوها إلى التجمع والتساند لمواجهة العملاق الذى بدأ يصحو» . .

ويقول : «إن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن! ولم تفلح الأحداث الكثيرة فى زعزعة ثقتهم به . . وإن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم . وستظل كذلك مادامت الشعوب الإسلامية قد ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام ، واعتقدت أنه الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة» . .

إن هذا القول القديم الجديد يكشف ما وراءه من إعداد لضرب الإسلام غيلة أو جهرة ، ويفرض علينا المزيد من الحذر واليقظة . .

والحق أن الصحوة الإسلامية المعاصرة تكتنفها أخطار هائلة ، يشارك فى صنعها مبشرون ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء وإعلاميون ، وملاحدة وكتابيون ، ومصارحون ومداهنون وأناس غرباء وأناس من جلدتنا . .

ولست أخاف أولئك كلهم يوم يكون قادة الصحوة الإسلامية من معدن إسلامى صاف يجددون سيرة سلفنا الأول فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم ترنو إلى الله وحده . .

لقد كادت الدعوة الإسلامية تعلن إفلاسها منذ قرنين تقريبًا ، بل لقد تركت الميدان خاليا لشتى الملل والنحل تنشر الخرافة وتعلى راية الباطل . . ثم بدت تباشير صبح جديد وتيقظت الثقافة الإسلامية من سباتها تدافع بقوة وتمهد لغد أفضل . .

وأريد أن أقدم للصالحين الجدد بعض ما أفدت من تجارب حتى يتجنبوا النكسات ، وحتى لا يقدموا أرض الإسلام غنيمة باردة للمتربصين من كل لون . .

إننى أشعر بانزعاج حين أرى المجاهدين فى قطر ما يبدءون العمل من الصفر ، غير منتفعين بما حدث لإخوانهم فى قطر مجاور ، بل حين تبدأ جماعة ما العمل غير منتفعة بما وقع لزميلتها فى القطر نفسه من بضع سنين . . إنهم يلدغون من جحر واحد مرتين ، أو أكثر دون وعى . .

ماتقول فى مدير يبدأ العمل فى شركة مضطربة دون أن يدرس أسباب الاضطراب ومسالك المديرين من قبله ، وأسرار فشلهم أو توقفهم؟ ألا يستحق التأديب؟ . .

إن خسائر جسيمة أصابت الدعوة الإسلامية من هذه القيادات الذاهلة . .

ولا يقبل فى هذا المجال اعتذار بحسن النية ، ولا تنجوا الأمم المسترسلة وراء هذه القيادات . وإذا كان الجهل بقوانين البشر لا ينجى من اللائمة ، فإن الجهل بسنن القدر أسوأ عقبى ، ومن هنا رأينا الحساب شديدًا للمنهزمين فى أحد! قيل لهم دون مواربة لما سألوا عن سر هزيمتهم ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] .

ويوجد عاملون فى الحقل الإسلامى يظنون أنفسهم فوق المساءلة ، لعل ذلك ببركة الوضوء والصلاة! . .

والذى أراه أن القوم يعانون عللا نفسية ، وأنه لا بركة هنالك بل فوضى! . .

ولأترك هذا التعليق العابر إلى أخطاء لها جذور فى ماضينا الطويل . .

كان الأدباء قديمًا يلتزمون السجع فى مقالاتهم ، ومرت بالأدب العربى عصور احتبس فيها داخل هذه القيود اللفظية .

والتزام السجع يتم على حساب المعنى غالبا ، فلن تجد فكرًا عميقًا ولا أداء مناسبًا سهلاً ولا معالجة خصبة ثرة تختلف القضايا والموضوعات ، بل إن السجعة قد تخلق

(١) آل عمران : ١٦٥ .

المعنى ، ومن الطرائف فى هذا أن أحد الولاة قال للقاضى : أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم! فقال الرجل المعزول : والله ما عزلتنى ولكن عزلتنى القافية! . .

ولم يأخذ الأدب العربى طريقه صعدًا إلا بعد ما تخلص من القافية أو السجع . .

وما حدث فى ميدان الأدب حدث مثله فى ميدان الدين . فقد مرت بالمسلمين عصور طوال أصبح فيها فقه الفروع عمود الدين وسنامه وذروة أمره! أو أصبح البحث فى صور العبادات وأشكالها هو الشغل الشاغل للخاصة والعامة . .

وتصور الدهماء أن إتقان المراسم شارة الكمال وسلم الارتقاء ووسيلة القبول عند الله . .

وعلم الفقه جزء له مكانته فى الثقافة الإسلامية لكن مكانته تجىء بعد علوم العقيدة والأخلاق . .

وإتقان مذهب فقهى فى الفروع العملية شىء حسن ، ولكن هذا الاتفاق لا يغنى قليلا ولا كثيرًا عن مهاد الأخلاق والعقائد الذى لابد منه أولا وآخرا . .

ربما اختلف الفقهاء : أيقرأ المصلى وراء إمامه أم لا؟ بيد أنهم متفقون على أن الخشوع روح الصلاة ، وأن من فقد هذا الخشوع فقدت صلاته قيمتها ، سواء قرأ أم صمت . .

ومع ذلك فقد استفحل الغلو فى قيمة أفعال الصلاة استفحالاً مزق شمل الأمة ، فإذا الصلاة الواحدة تنعقد لها أربع جماعات فى الأزهر الشريف واحدة للأحناف ، وثانية للشافعية ، وثالثة للمالكية ورابعة للحنابلة ، لأن صلاة مقلد لا تصلح وراء مقلد آخر! . . وكان ذلك الانقسام يقع فى الحرم المكى نفسه حتى أدركت المسلمين رحمة الله ففضت هذه الجماعات كلها ، وصلى الكل وراء إمام واحد . .

إن توسيع المساحة التى يعمل فيها فقه الفروع تم على حساب تضييق المساحة التى تعمل فيها التربية الدينية ، وتتحول فيها العقيدة إلى قوى روحية وملكات نفسية . .

وتصور رجلا منح جنيها ليعيش به فاشترى بنصفه مياه غازية ومعدنية ، وبالنصف الباقى لديه سكرًا وشايًا ، ووجه مابقى بعدئذ للخبز واللحم والبقول والفواكه . . إلخ . . إن هذا رجل سيقتله فقر الدم يومًا . .

وقد لاحظت أن مصابنا شديد فى الأنشطة العقلية والخلقية بسبب هذا العوج . . وحسب كثير من المتدينين . . أن تشبث ببعض المراسم العبادية الثانوية يغطى هذا التصور وهيهات . .

وكنت أرجو أن تنقه الجماعات الإسلامية من هذا الاعتلال . . فساءنى أن بعضها غرق إلى الأذقان فى البحوث الفقهية وما تشعب عنها من خلاف وما بنى عليها من أوهام كبار . .

إن حكم تحريم الذهب على النساء كما يرى البعض يساوى ـ وقد يرجح ـ تحرير أفغانستان من الشيوعية! وضبط الفرجة المستحبة بين قدمى المصلى يكاد يبلغ مجلس الأمن! وتحليل الموسيقى يشبه الكفر أو دونه الكفر . .

لقد ذكرنى هذا الخلل الردىء بما كنت أقرأ فى كتب التاريخ . . قال الراوى : دخل فلان على الخليفة ، وتحدث معه بأغلظ القول . . قال : فضممت علىَّ ثيابى مخافة أن يصيبنى دمه! . .

إننى عجبت لهذه المخالفة ، مصرع رجل شجاع ، ويتم أولاده ليس هو المحذور . . المحذور أن تبتل ملابس الراوى بدم القتيل . . ألأن الدم نجس؟ أم لأن ثمن غسله باهظ؟ إن توارث هذا الفكر سقوط عقلى وخلقى معا ، وأهل هذا الفكر لا يصلحون لشىء فى دنيا الناس . .

إننى ميال إلى إغلاق باب الاجتهاد فى فقه العبادات ، وإبقاء حق الاختيار ، أو مايسمى بالاجتهاد الانتقائى ، نأخذ ما تدعو إليه الحاجة وندع ما عداه ، من الثروة الطائلة التى آلت إلينا . .

والذى يدفعنى إلى ذلك أن وجوه الرأى فى كثير من القضايا تكاد تستوعب الصور العقلية . أو الشىء وضده معا ، خذ مثلا إمامة المرأة فى الصلاة ، يرفضها فقهاء مطلقا ويجيزها البعض مطلقا ، ويرى الشافعى جوازها للنساء خاصة . .

ولمس المرأة؟ ينقض الوضوء مطلقا ، ولا ينقضه بتة ، وقال مالك : النقض وعدمه مقرون بطلب اللذة من اللامس! .

وإمامة الفاسق؟ ردها بعض الفقهاء بإطلاق ، وأجازها قوم بإطلاق ، وفصل آخرون متسائلين : هل فسقه بتأويل أم بتبجح؟ هل فسقه قطعى؟ أم ظنى؟ ومع تغير الجواب يتغير الحكم . .

ليت شعرى ما نصنع نحن بعد ذلك إلا الموازنة والترجيح؟ وإذا انتهى أحد إلى رأى فهل له إلزام الآخرين به ومؤاخذتهم على تركه؟ لا . .

وقبل ذلك كله وبعده هل هذه الأحكام تسبق فى الترتيب إيحاءات العقيدة ، ومقررات الأخلاق ، وضوابط التربية؟ لا .

إن الذى يكره مسلما لأنه لا يضع يديه تحت رقبته فى الصلاة ، أو لأنه يقنت فى الفجر مثلا ، رجل منحرف ضعيف الخلق . .

وإتقانه للصلاة على النحو الذى يألف لا يمحو عنه هذه الوصمة فالخطأ الفقهى مأجور ، أما الخطأ الخلقى فهو إثم ، وهذه الأخطاء الخلقية من وراء الفتوق الرهيبة التى تسلل منها الغزو الاستعمارى وفتك بنا . .

أحسست غضبًا شديدًا وأنا أسمع مفتيا فى إحدى الإذاعات يجيب عن سؤال وجه إليه : هل يجوز إخراج زكاة الفطر نقودًا؟ قال المفتى : لا يجوز ، ومن أخرجها نقدًا وجب عليه أن يعيد إخراجها شعيرًا أو قمحًا ، واستتلى : إن هذا التصرف بدعة ، ومن أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه . .

وخيل إلىَّ من غضب المفتى أنه لو وجد أبا حنيفة لأمسك بخناقه وأخمد أنفاسه لأن هذا الإمام يرى إخراج الزكاة بما هو أنفع للفقراء نقدًا كان أم حبوبًا . .

وأغلب المسلمين يتبع هذا الرأى ، فلماذا نحرجهم؟! . . ولماذا نرى فهمنا هو وحده الدين؟ . . لم ضيق الأفق . . وقطع ما أمر الله به أن يوصل؟ . . إن المتوقعين فى نطاق الأحكام الفقهية المحدودة يسيئون أكثر مما يحسنون . .

وحدث فى إحدى الكليات أن أقبل العميد على جمع من الطلاب كانوا جلوسا على بعض مقاعد الحديقة وخف الكل إلى استقبال أستاذهم وقوفا ، إلا واحدًا ظل على كرسيه لم يتحرك ، زاعما أن ما فعل هو السنة ! . .

قلت : إن الرسول ﷺ قال للأوس لما جاء زعيمهم سعد بن معاذ : **قوموا إلى سيدكم!** والطلاب الذين قاموا مرحبين بعميدهم أقرب إلى الفطرة والسنة والأدب من هذا الطالب ، وهو يسىء إلى الإسلام بهذا المسلك .

قال لى أحدهم : إنه طالب محافظ يربى لحيته! قلت : تربية اللحية من سنن الفطرة ، وتربية النفس من أركان الإيمان ، وماذا عليه لو أحسن الشكل والموضوع؟ . .

إن الاهتمام بالشكل أول مراحل التقليد ، فالطفل عندما يرى أباه وهو يصلى يحفظ حركات جسمه ركوعا وسجودًا ، ويبدأ محاكاته فيها . . أما مشاعر الخشوع

ومعانى الكلمات فهو لا يراها ، ولا يحسن تقليدها ، لعله يبلغ ذلك مستقبلا بالدراسة والتجربة والمعاناة . .

والأمم الطفلة هى التى تبرع فى تقليد الشكل وتفصله فصلا تاما عما ارتبط به من معان ، فهى فى ميدان الأدب تحسن السجع والجناس أكثر مما تعمق الفكرة وتسدد النظرة ، وهى فى ميدان الدين تضحى بوحدة الأمة فى سبيل إخفاء البسملة أو الجهر بها . .

وسلفنا الأول كان أرفع كثيرًا جداً من هذا المستوى ، ولذلك خدم رسالته وبلغ دعوته . .

هل من الصحوة الإسلامية أن يهمل البعض التفوق الصناعى مدنياً كان أو عسكرياً لانشغاله بحكم الصلاة فى النعال ، وجواز دخول المساجد بها؟ هذا المسلك إغماء عقلى وهوس دينى ، ولا يوصف أبدا بالخير . .

ثم - أيصنع العقل الغربى السيارة ونشتريها نحن لنكتب عليها «عين الحسود فيها عود! . . أو كايدة الأعداء»! . .

إن أية يقظة إنسانية إنما تنهض بدءا وختاما على حدة العقل ، وسناء القلب ، والإسلام إنما أنهض العرب وحلق بهم فى الأوج لأنه أنعش هذه الملكات الإنسانية وأطلقها تسعى ، والصحوة الإسلامية الحاضرة ينبغى أن تترسم الخطا الأولى لا أن تتبع خلوفا ظلموا دينهم وأنفسهم على سواء . .

هل نستقدم خبراء ليعلمونا نظافة البيوت والمدن؟! . . هل نستقدم خبراء ليعلمونا الهدوء والنظام والسير فى الشوارع برتابة وكياسة؟! . . هل نستقدم خبراء ليعلمونا أن التزوير فى أداء الشهادات وإجراء الانتخابات ضرب من الوثنية؟! . . هل نستقدم خبراء ليعلمونا كيف ندفع الكفاءات إلى الأمام ونرد التافهين إلى الوراء؟! . .

إن هناك أبجديات فى الفطرة الإسلامية لا ندرى لماذا ننساها؟! ولن تتم صحوة إلا عندما نفتتح بها أولا . .

قال لى صديق عالم فى «الجيولوجيا» : إننى قلق الآن أمامنا عشرات السنين حتى نطوى مسافة التخلف الحضارى بيننا وبين من سبقونا فى ميادين الذرة والفضاء والطاقة وغيرها! . . ودعم الحق ميئوس منه بالوسائل البدائية . .

قلت : إننى أومن بعون الله . . ثم استتبعت أقول لنفسى ولكل مهتم بأمر دينه : إن العون الأعلى يظفر به الصاحون بين السكارى! فلنجتهد فى ترشيد صحوتنا المعاصرة حتى تؤتى جناها . .

٩٣. ما مكانة العمل والعلم فى الإسلام؟ وهل هما قاصران على العمل العبادى والعلم الدينى؟

الإسلام هو الوحى النازل على محمد ﷺ ليوجه به الحياة إلى ربها ، ويهدى الناس كافة إلى الصراط المستقيم . . أى إنه حقائق مقررة أولاً ثم أساليب متجددة فى البلاغ والعرض ، والحماية والدفاع . .

لنفرض أن صاحب فلسفة ما اقتنع بأن ما لديه ينفع العالم . . إنه ابتداء يشرح ما عنده ويطبقه فى ذات نفسه ، ثم ينتقل إلى تفهيم الآخرين بكل وسائل الفهم ، ويحتاط ضد المعتدين والمعوقين بكل أسباب المقاومة . .

وقد مضى الإسلام على هذا النهج منذ بدأ مسيرته ، أو منذ استمع نبيه إلى صوت الوحى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

إن العلم هنا من شقين ، علم بحقائق الوحى ، وعلم بطرق غرسه ، وذود الأذى عنه! . .

فى الفلسفات المادية المعتادة يسير العلمان معًا سيرًا لا يتسم بأى تناقض! . . فالشيوعية تسوى بين رجل الإعلام الذى يعرض مبادئها فى الصحف المحلية والهيئات الدولية ، وبين رجل الفضاء الذى يستكشف الكون ، ويستخدم الأقمار الصناعية فى الكر والفر والظفر فى حرب الكواكب! . .

كلا الرجلين يؤدى واجبه نحو مبدئه ، وكلا العلمين يعمل للآخر ويعانقه . . إننا نضرب هذا المثل ليعلم السذج من المسلمين أن تالى القرآن الكريم فى الإذاعة يعرض نوعًا من المعرفة الدينية ، وأن الذى يشرف على توجيه صاروخ فى الفضاء كى يدافع عن هذه المعرفة لا يقل مكانة عن القارئ المرتل ، وقد يكون ـ بصدق نيته ـ أولى بالله منه ! . .

---

(١) العلق : ١ ـ ٥ .

إنه هو الآخر يمثل علمـا لابد منه ، مـا يحيـا العلم الأول إلا به ، فـالإيمان آس والجهاد حارس .

والواقع أن الثقافة الإسلامية منذ نشأتها تشعبت أصولها وفروعها ، وتشعب العمل الذى يقوم به المسلمون فرادى وجماعات ، وليس فى تاريخ هذه الثقافة علم دينى بعيد عن الحياة ، وعلم مدنى بعيد عن الدين ، ولم يقع انقسام العلم إلى دينى ومدنى إلا فى عصور السقوط والاضمحلال . .

وبديه أن تكون علوم الشريعة أول مظاهر الحركة العلمية فى الإسلام ، فنشأت علوم القرآن والسنة والفقه والأخلاق والتربية ، ولا يجرؤ أحد على إنكار ما فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من خصوبة فكرية ، ومنابع غزيرة للفكر والوجدان والسلوك ، إنهما مهاد جليل لحضارة إنسانية ذكية رحبة . .

ثم صاحب ذلك ميلاد العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع ، وازدهر الأدب والبحث فى فلسفة اللغة وأسرار البلاغة وألفت القواميس ، وأصبحت الدراسات الأدبية واللغوية جزءا أصيلا من عمل المعاهد الدينية . .

ونشطت الدراسة الفلسفية ـ التى تحولت فى عصرنا إلى علوم إنسانية ـ فلم تبق فى أرض الله أثارة من معرفة إلا استقدمها العرب ، وتوفروا على فهمها وتقويم مسارها . .

ومع نضج الفكر الإسلامى ظهرت علوم الكون والحياة مستهدية بمنطق الملاحظة والتجربة ـ وهو منطق قرآنى المنبت ـ فكانت علوم الرياضة من حساب وجبر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، والفلك! . .

ويكاد المنصفون من مؤرخى الحضارة يجمعون على أن المسلمين هم أولو الفضل على النهضة الأوربية ، وأنهم السبب المباشر فى عصر الإحياء . .

وقد كان من وراء الانتصارات العسكرية الإسلامية ـ إلى ما قبل بضعة قرون ـ تفوق علمى وصناعى ، هو الذى أعان على فتح «القسطنطينية» وحصار «فينا» ووقف الزحف الصليبى .

ويرى المحققون أن الحرب التى نشبت بين العلم والدين فى أوربا ، قد أشعلتها الكنيسة عن عمد لأنها رأت أن الاتجاه العلمى المبتكر الناشط هو أثر الزحف الإسلامى الناجح ، وأن العلماء الباحثين هم ـ طابور ـ خامس للجهاد الإسلامى القديم .

بيد أن هذا كله تلاشى مع خمول المسلمين الأخير، وانطفاء جذوتهم، وانتشار الجهل العام فى ربوعهم، وفهم كثير منهم أن العلم لا يتجاوز دراسة الوضوء والصلاة والمواريث! وأن ما وراء ذلك من أدب وفن وكشف وذكاء نوع من الفضول.

وقد دفعوا ثمن ذلك الخطأ سوادا صبغ الوجوه وأخزى النفوس، وجعل بلادهم بين الأطلسى والهادى مسرحًا لاستعمار أنانى ظلوم، أكل دينهم ودنياهم على سواء..

ومن الغرائب أن بعض الفتية المشتغلين بالدين لايزالون صرعى هذا الغلط الفاحش، وأن المنتسبين منهم إلى كليات عملية أو مدنية يصدفون عن الدراسات المكتوبة عليهم ويقولون: ندرس علوم الدين..

ويحكم! وهل يقوم الدين إلا بالعلوم التى فيها تزهدون؟.

وكما لا يقوم إلا بها، فهو ما يحسن فهمه إلا فى ضوئها.

من هؤلاء الفتية من أمضى عدة سنوات فى كليات الهندسة أو التجارة أو غيرها، ورأى أن يضحى بالسنوات التى قضاها ويلتحق بإحدى الجامعات الإسلامية..

وأقتطف هذه الفقرات من رسالة كتبها لى أحدهم يقول فيها: «.. يؤلمنى ألما شديدًا، ويعتصر قلبى حزنًا تعدد الأهواء، وإعجاب كل ذى رأى برأيه! وقد دعوت الله أن يلهمنى الحق ويهدينى الطريق القويم ويوفقنى إلى الالتحاق بالجامعة الإسلامية فقد علمت من قراءتى للإمام الشافعى «أن العلم ما كان قال حدثنا، وأخبرنا، وغير ذلك وساوس شياطين! ولذلك فإنى أرغب فى التعلم الدينى المنهجى! والله يوفقك لمساعدتى».

وقد رق قلبى لصاحب الرسالة، وحاولت إلحاقه بكلية الشريعة فى دولة قطر، ولكن التعليمات القانونية لم تسمح!..

ولابد من وعى الكلمة المنسوبة للإمام الشافعى ـ إن صحت ـ فالمراد منها أن شئون العبادات لا مجال فيها للآراء الشخصية، وإنما تأخذ العبادات من النقول الثابتة عن المعصوم..

وقضايا العبادات قطرة من بحر فى سلوك المسلمين وشئونهم العلمية، ولا دخل للروايات فى موضوعات العلوم الأخرى..

وقد تأملت فى سيرة نفر من خريجى الجامعات الإسلامية فكدت أيأس من جدواها، هذا رجل يحمل حملة شعواء على الأضرحة، قال لى أحد مستمعيه: لكن لا توجد فى هذا البلد أضرحة.. قلت: كلام سمعه لايعرف غيره فأفرغه بيننا..

وفى افتتاح مسجد بباريس، وفى أثناء التقاط صور تذكارية للحفل قام واحد من هؤلاء فى حالة تشنج، يذكر أن التصوير الشمسى حرام!..

فقال له أحد الحضور: ذلك رأيك! وما أكثر الفقهاء الذين يخالفونك، إنك توقف سير الدعوة الإسلامية فى باريس بهذا التعصب الضيق لرأى ما، فهل تريد التضحية بالدين كله من أجل وجهة نظر لك أو لأناس قاصرين خلفك؟..

قلت فى نفسى: ما أتعس حظ الإسلام، إذا كان المتحدثون باسمه لا يعرفون العلم الخادم له أو المبين عنه.. إلا بعض المرويات، وبعض الأفهام..

عندما عرض عفريت من الجن على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل أن يقوم من مقامه.. ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[1].

ما أحوج المسلمين إلى رجال أوتوا علم هذا الكتاب.. أم أن هؤلاء الرجال حشوا سوء الاستقبال عندنا، فحطوا رحالهم فى أوربا وأمريكا؟..

ليس للعلم ولا للعمل صورة واحدة صالحة، أو ميدان واحد مقبول.. فإن الله أمر المسلمين أن يفعلوا الخير ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وكلفهم مع فعله أن يدعوا الآخرين إليه ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[3] فهل للخير المطلوب شكل واحد؟ لايرى إلا فى الصلاة والصيام؟..

إن صنوف الشر لا تحصى، وصنوف الخير لا تحصى! وما يحشده البشر لتحصيل الخير أو الشر لا يحصى، وللوسائل حكم الغايات..

والحق أن العمل الصالح ـ الذى هو صنو الإيمان ـ هو كل سلوك يترجم عن نية حسنة وغاية شريفة، وقد يكون فلاحة أو صناعة أو إدارة، وقد يكون سفرًا أو إقامة، وقد يكون قتالاً أو سلامًا.. إنه مسلك غير محدود لباعث واحد هو حب الخير، وطلب الإصلاح..

(١) النمل: ٤٠. (٢) الحج: ٧٧. (٣) آل عمران: ١٠٤.

﴿ ... فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[١] .

وقد سمى القرآن الكريم تجويد الصناعات الحربية ـ لدعم الحق بداهة ـ سماها عملا صالحًا ، فقال عن نبى الله داود : ﴿ . . وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٢] .

وجعل كل تعب يعانيه المجاهدون ، وكل بذل يتكلفونه عملاً صالحًا ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣] .

وما يذكره القرآن الكريم ليس إلا نماذج وأمثلة . . ولقد اعتبر الرسول الصلة الجنسية بين الرجل وامرأته عملاً صالحًا يثاب عليه لأنها حصانة من الإثم ، ووقاية من الشرود . .

إن كل علم تسمو به الإنسانية ، وكل عمل تزكو به هو من صميم الدين ، ترجح به الموازين ، وترتفع به الدرجات ، فى الدنيا والآخرة .

(١) الأنعام : ٤٨ ، ٤٩ .　(٢) سبأ : ١٠ ، ١١ .　(٣) التوبة : ١٢٠ .

٩٤. لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا؟ وما موقفه الحقيقى من هذه القضية؟ وهل يجوز للمسلمين فى حروبهم مع أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقًا؟

فى مطالع البعثة المحمدية كان الرقيق واقعًا غير مؤلم ولا مستغرب ولا منكور . . وكانت جماهير الأرقاء تزحم المشارق والمغارب لا يأبه لهم أحد ولا يفكر فى إنقاذهم مصلح . .

فى أرجاء الدولة الرومانية النصرانية كان العبيد يخدمون فى صمت ، وربما قدم بعضهم طعامًا للوحوش فى بعض المناسبات ، وكان اليهود ـ وفق تعاليم التوراة ـ ينظمون أساليب الاسترقاق للعبرانيين وغير العبرانيين . .

ولم لأسى على الرقيق وحدهم؟ إن المنبوذين فى القارة الهندية كانوا أنجاسًا لا تعرف لهم حرمة ، ولقد وقع ابن لامرأة برهمية فى بئر ، وكان أحد المنبوذين يستطيع إنقاذه لو دنت أمه! لكن الأم فضلت أن يموت ولدها ولا يعيش بعد ما لمسه منبوذ . .

وجاء فى الكتاب المقدس أن طعام النبيين لا يعطى للكلاب . . والنبيون هم بنو إسرائيل . . والكلاب هم الكنعانيون الذين كانوا يسكنون فلسطين قديمًا . .

فى هذا الجو القابض الظلوم كانت الإنسانية تعيش ، ما أنصفتها فلسفة اليونان التى تقر الاسترقاق بعقلها المفكر! ولا أنصفتها مواريث التدين التى احتضنها الكهنة ، وأظلمت بها الأرض . .

حتى تكلم محمد ، وأصاخ الناس إلى ماجاء به فإذا هم يسمعون أن البشر كلهم إخوة بينهم نسب واحد ، وتسرى فى أوصالهم نفخة من روح الله ، وأنهم سواسية فى الحقوق والواجبات . . وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتحابوا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١] .

(١) الحجرات : ١٣ .

وسمع الناس للمرة الأولى فى تاريخهم أن المسترقين يجب أن تفك قيودهم وتعتق رقابهم ، وأن العانين ينبغى أن يحرروا من الذل والجوع والهوان ، وأن العقبات دون هذا كله لابد من اقتحامها لمن يريد رضوان الله : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾(١) .

وعلى المؤمنين أن يتجردوا لأداء هـذا الواجب ، فلا يحرروا الأسرى ليجعلوهم أتباعًا ، أو عبيد إحسان بعد ما كانوا عبيد سطوة كلا إنهم ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾(٢) .

ولما جاء دور التشريع لنقل هذه المبادئ إلى قوانين ملزمة نظر الإسلام إلى مصادر الرق فألقاها كلها على النحو الآتى :

كان الرومانيون ومن قبلهم العبرانيون يحكمون بالعبودية على مقترفى بعض الجرائم . . ومن هذه الجرائم عند الرومان عجز المعسر عن الوفاء بالدين . . وقد رفض الإسلام هذه النظرة رفضًا حاسمًا ، ولم يسترق فى أية مخالفة ، بل رصد من الزكاة المفروضة سهمًا لازمًا لسداد ديون المعسرين ، وقال تعالى :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

وكان الخطف إلى القرن الماضى مصدرًا هائلاً للاستعباد ، وقد ظل الأوربيون يصطادون البشر بضعة قرون من غرب إفريقية ، فى ظروف تكتنفها الوحشية المطلقة ، وتم خطف عشرات الملايين وهلاك مثلهم فى أثناء الغارات التى كان يقوم بها قراصنتهم . .

وأبى الإسلام إباء شديدًا خطف الأحرار ، وهدم كل ما انبنى على هذا الخطف من آثار ، وجاء فى الحديث القدسى عن رب العزة قال الله تعالى :

(١) البلد : ١١ ـ ١٦ . (٢) الإنسان : ٨ ، ٩ . (٣) البقرة : ٢٨٠ .

«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته . غلبته . رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه الأجر» .

والمصدر الثالث للاسترقاق ـ وهو مصدر خطير ـ أسرى الحروب ، إن أولئك المنكودين الخزايا كانوا يواجهون مستقبلا غامضًا ، وقد يكون الاسترقاق أهون ما يتوقعون .

وفى الحرب العالمية الثانية لم تعرف مصاير الألوف المؤلفة من أسرى الروس لدى الألمان ، أو أسرى الألمان لدى الفرنسيين . .

فإن كان ذلك ما وقع أيام التحضر والارتقاء فما ظنك بما كان يقع قديمًا ؟ . .

على أية حال فإن الإسلام فى أول حرب خاضها خرج على الدنيا بمبادئ أزكى وأرق فى معاملة الأسرى ، فنزل على رسول الله ﷺ فى الأسرى بعد معركة بدر . . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

والخيانة التى تشير إليها الآية موقف المشركين من قضية الحريات الدينية والإنسانية كلها ، فقد كان موقفًا غبيًا متعنتًا مليئًا بالكبرياء والقسوة . . أكان هذا موقف عبدة الأوثان وحدهم؟ . .

كلا ، فإن أهل الكتاب كانوا أخس وأظلم . .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾(٢) .

ليكن! فليس لأحد أن يرغمهم على اتباع! لكنهم لم يكتفوا بهذا بل لجأوا إلى صد الاتباع وفتنة الضعفاء وقيل لهم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٣) .

(١) الأنفال : ٧٠ ، ٧١ . (٢) البقرة : ١٤٥ . (٣) آل عمران : ٩٩ .

ولو أن الكره للإسلام كان عواطف فرد أحمق ، أو سلوك نفر متعصبين لهان الخطب . . لقد تحول إلى حرب ساخنة يصلاها دين عده خصومه خارجًا على القانون ، ولم يروا الاعتراف به أبدًا . .

ولننظر إلى صدر تاريخنا القديم ، ولنتساءل : متى اعترفت الأديان الأخرى بحق الحياة للإسلام ، وحق أتباعه فى إقامة مجتمع له؟ . .

لا مجوس فارس ، ولا يهود المستعمرات المقامة فى جزيرة العرب ، ولا الرومان الذين اعتنقوا النصرانية ليجعلوا منها ذريعة استعمار أسود أكل الشام ومصر وغيرهما طول خمسة قرون .

ومع ما أحسه سلفنا من وحشة ونكير ، فقد خاضوا ضد أعدائهم حربًا عادلة ، وأمروا بكسر شوكتهم ومحق كبرهم حتى إذا قلموا أظافرهم وأذلوا طغيانهم قيل لهم : لكم أن تمنوا على الأسرى والمنهزمين ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1] .

وقد يفزع البعض لكلمة (ضرب الرقاب) بيد أن فزعه هذا يذهب عندما يعلم أن عربيًا من أذناب الروم ، ومن ولاتهم شمال الجزيرة قبض على المسلم الذى جاء برسالة من لدى النبى ﷺ يدعو فيها إلى الإسلام وقال له : أنت حامل رسالة محمد؟ :

ـ نعم ، فأمر بضرب عنقه !! . .

كان حمل كتاب رقيق العبارة ، مقبول العرض جريمة تعالج بالقتل السريع . . م يعامل هؤلاء الأذناب من سماسرة الاستعمار الرومانى المتعصب؟ . .

إنها الحرب ولا شيء غيرها . .

ثم قيل بعد ذلك للمقاتلين المسلمين ﴿ . .إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[2] .

المن أو الفداء! ليس هناك تصريح فى الآية باسترقاق أحد ، لم يعد الأسر منبعًا دائمًا لأسواق الرقيق ، كما كان ذلك معهودًا فى القرون الأولى . .

(١) محمد : ٤ . (٢) محمد : ٤ .

وهنا نبحث : كيف يتم تنفيذ هذا المبدأ؟ . . هل يطلق المسلمون سراح الأسرى دون قيد أو شرط ليعودوا إلى مقاتلتهم مرة أخرى؟ . .

هل يتم هذا التحرير فى الوقت الذى يباع أبناؤهم فيه هنا وهناك؟ . .

إن معاملة الأسرى ليست تشريعًا محليًا . يصدر من جانب واحد . . إنه تشريع تلتزم به أطراف متشابكة المصالح ، متعاونة على احترام قيم معينة . .

هل يجد المسلمون هذه المعانى عند خصومهم؟ كلا! فإن هؤلاء الخصوم من عبدة الأصنام ، أو من أتباع الكتب الأولى لايقرون للمسلمين بحق الوجود ، فكيف يسمحون لهم بحق البقاء وحرية التدين؟! . .

وعندما يوجد تفاهم دولى على «المن أو الفداء» فنحن أول من يهرع إلى الإسهام فيه ، وإنفاذ عهوده . . إن مبدأ المعاملة بالمثل له أثره العميق فى العلاقات والمعاملات الدولية ، وقد قلنا : إن الأمريكيين لو عرفوا أن اليابان تملك رادعًا نوويًا ، ما فجروا قنابلهم الذرية فوق هيروشيما وناجازاكى!! . .

وإلى أن يتم تفاهم عالمى على أسلوب إنسانى فى معاملة الأسرى انفرد الإسلام بتعاليم تحنو على أولئك المنكوبين ، وتذكر بالأخوة الإنسانية وتوصى بالرحمة ، وتعاقب على الغلظة ، أو بعبارة موجزة : جفف منابع الرق جهد الطاقة ، نوع أسباب التحرر والانطلاق! فليس هناك أمر باسترقاق ، وإنما هناك أوامر بالإعتاق ، وقد بسطنا ذلك كله فى موطن آخر [1] .

قال لى شخص من المتأثرين بالاستعمار الثقافى : إن الحضارة الحديثة هى التى حررت النساء والأرقاء ، ولا ريب أنها انساقت إلى ذلك من مواريثها الدينية! . .

قلت له : إن الحضارة الحديثة مكنت ناسا لهم فطرة سليمة من خدمة البشرية مثل أبراهام لنكولن الذى قاد حربا شديدة لتحرير العبيد ، وقد لقى الرجل مصرعه بعد هذا البلاء ، كما لقى غاندى مصرعه على يد هندى متعصب لدينه! . .

وأصحاب الفطرة السليمة الذين جاهدوا فى سبيل هذه الغايات النبيلة كانوا يستوحون ضمائرهم وحدها . .

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة .

أين تجد المواريث الدينية فى تحرير النساء عندما تقرأ رسالة بولس الأول إلى أهل كورنتوسى ، الأصحاح الرابع عشر فقرة ٢٤ وما بعدها : «لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن! . . كما يقول الناموس أيضا ، ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فيسألن رجالهن فى البيت ، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن فى كنيسة» . .

وأين تجد المواريث الدينية فى تحرير الأرقاء عندما تقرأ رسالة بولس إلى أهل أفسس «أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة! فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كما يرضى الناس، بل كعبيد المسيح.. إلخ»(١) .

إن رجالا من أصحاب القلوب الكبيرة هم الذين جاهدوا بشرف لتكسير القيود التى أنشأها التظالم البشرى على مر العصور . . والحقيقة أنه لا دين إذا طمست الفطرة وطغت الأثرة! . .

وللإسلام علامة مميزة يعرف بها ، ويلفت كل امرئ إليها ، تبدو فى قوله تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

ومن هنا حكمنا بأن التقاليد التى يتعارف الناس عليها يجب نبذها إذا خالفت الفطرة! . .

ويستحيل أن تكون هذه التقاليد دينا وإن استمسك بها بعض الكهان . .

(١) على هذا النص وغيره استقر الرق فى الغرب ، وقتل أحد المتدينين المتعصبين له «لنكولن» محرر العبيد . .
(٢) الروم : ٣٠ .

٩٥. ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها؟

هناك جوانب فى الحضارة الحديثة جديرة بالاحترام كله ، بل أعتقد أنها امتداد أو انطلاق من الفكر المتحرر الراشد الباحث عن الحق ، الحفى بالمعرفة ، المستغل لأثمن مواهب الإنسان . .

إن الوصول إلى اليقين فى قضية حسية أو عقلية ليس شيئًا رخيصًا ، إنه ثمرة غالية لأعلى مواهب البشر بل هو الاستجابة الوحيدة لقوله تعالى :

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾(١) .

وهو كذلك البعد المطلوب عن نهج المنحرفين والواهين والقاصرين الذين قيل فيهم : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾(٢) .

والحضارة الحديثة نجحت فى ميدان البحث المادى ، وتعمقت فى الدراسات الكونية كلها ، وهذا النجاح - فى رأيى - يجعلها أقرب إلى منطق القرآن الكريم ، وأدنى إلى منهجه ، فإن التفكر فى الكون أرضه وسمائه وما بينهما ، مطلب إلهى لا ريب فيه . .

والمسلمون يحملون أوزار التخلف فى هذا المجال ، وقد دفعوا ثمنه فادحًا ، وأرى أنه من عصيان الله ، والفسوق عن أمره الانشغال بالجدل العقيم ، وفلسفة ما وراء المادة ، وتشقيق الخلاف وتكثيره فى شئون يستوى فيها العلم والجهل . .

إن الحضارة الحديثة اكتشفت كثيرًا من قوى الكون وأسراره ولها الآن حصيلة كبيرة فى علوم الذرة والفضاء و «الإلكترونيات» و «الكمبيوتر» وقد نقلت آثار ذلك إلى تفوق مدنى وعسكرى فى البر والبحر والجو . .

ومع هذا السبق البعيد ، فإن الحضارة الحديثة لا تزال واقفة عند العصر الحجرى فى ضبط الغرائز ، وترويض الحيوان الرابض داخل الجسم البشرى ، وكبح الأثرة المسعورة ، وجعل المرء يحب غيره ويغار على حقوقه ، أو على الأقل يعدل مع غيره ، ويعترف له بحقوقه طوعًا لا كرها!! . .

(١) الإسراء : ٣٦ . (٢) النجم : ٢٨ .

وقبل ذلك فشلت هذا الحضارة فى التعرف على رب العالمين ، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقدير نعمته والشعور بعظمته والتسبيح بحمده والتعويل عليه فى الأزمات والاطمئنان إليه فى المخاوف .

إن الإنسان مهما قوى بالعلم لن يكون إلهًا ، وسيبقى ما عاش فقيرًا إلى سيده ، لا يحس طمأنينة إلا فى السجود بين يديه ، واستلهامه الرشد . .

لكن من أين تطرّق الخلل إلى هذه الحضارة حتى إنه ليهدد مستقبلها؟ . .

قد يكون الجواب : من غرور الماديين بما وصلوا إليه ، واستهانتهم بما قصروا فيه . . والغرور بالعلم داء قديم ، وقد حدثنا القرآن الكريم أن أمما عمرت هذه الأرض قبلنا ، وأقامت بها مدنيات فخمة ، وأنها انتشت بما تيسر لها من لذة وسخرت مما قدم من نصح ، فماذا كانت عقباها؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1] .

والاعتزاز بالتقدم العلمى مرض مخوف ، بيد أنى لا أرد إليه وحده عوج هذه الحضارة ! . .

السبب الأول ناشئ ـ فيما أرى ـ من خيانة أهل الأديان لرسالات الله ، فالاسترخاء العقلى السيئ عند المسلمين ، والغش المجوج عند إخوانهم أهل الكتاب ، من وراء هذا البلاء ! .

أهل الكتاب قدموا من عند أنفسهم تعاليم نسبوها إلى الله ، ضاق بها العقل ، وتبرمت بها الفطرة نشب العراك بين العلم والدين ، كانت النتائج المعروفة ، ألحد العلم وساء ظنه بالوحى كله . .

وأما المسلمون فقد أوغلوا فى البعد عن دينهم حتى أمسوا فى واد ودينهم فى واد آخر! . .

التفكير الذى هو فريضة عليهم حسب وصية الكتاب تحول إلى تقليد وجمود ، وإذا عرض له نشاط ففى ما وراء المادة لا فى المادة نفسها كما شكونا مرارًا .

ومفاخر الحياة الإسلامية الأولى تلاشت ، فإذا قال شوقى :

فالدين يسر ، والخلافة بيعة ... الأمر شورى ، والحقوق قضاء!

وجدت التاريخ فى أعصر شتى يؤكد أن الأمر استبداد ، والخلافة اغتصاب ، ويسر الشريعة رياء وتعقيد ، والحقوق دعاوى «من الناب والظفر برهانها»! . .

على حين ظهرت الحضارة الحديثة بأساليب ثقافية وإدارية أدنى إلى الفطرة والشورى والاختيار الحر وإن شابها ما لابسها من هوى جامح وإسراف كثير . .

وصلاح الحياة لا يتم بهدم الباطل ؛ لأن الباطل جدير بالزوال! كلا ، لابد أن يكون الحق تام الاستعداد ليحل محله ، ويؤدى عمله بقدرة أعظم وأشرف . .

(1) غافر : ٨٣ .

وأعترف بأن المسلمين لم يستكملوا هذه الخصائص ، ولا هم اليوم أهل لتلك القيادة . .

الحضارة الحديثة نسيت الله كل النسيان ، ولم تأخذ أى أهبة للقائه ، إنها تعبد اليوم الحاضر ، وتجحد ماوراءه ، وتعبد الجسد وتغالى بمطالبه وحدها . .

ونحن باسم الإسلام نقاوم هذا الاتجاه الزائغ ، ونرفضه جملة وتفصيلا . .

أما الاقتدار العلمى ، وتسخيره لتنعيم الإنسان وتكريمه فنحن معجبون به ، كذلك نحن معجبون بالقدرة التنظيمية التى جعلت الإدارة فنًا رفيع المستوى ، وأبدعت أساليب لمنع الطغيان الفردى والهوان السياسى ، وإن كان الغربيون جعلوا هذه الثمار حكرا على الرجل الأبيض . .

ولا أستحى من أن أسائل نفسى وقومى : أين كنا حين استخرج الأوربيون النفط من أرضنا؟ ماذا كنا نصنع؟ وأية ثقافة كانت تملأ أدمغتنا؟ . .

أؤكد ، وأنا من علماء الدين ، أن الصحابة تجهل تسعة أعشار الفكر الدينى الذى شغلنا! ونمنا فيه وصحونا عليه! . .

وأؤكد أن نظم الحكم فى بلادنا كانت أشبه بنظم الحكم فى فارس والروم على عهد سلفنا الفاتح العادل الذكى . .

وأؤكد أن اللغة العربية فى الجاهلية الأولى كانت أضوأ وأنصع منها فى الأعصار النكدة الأخيرة . .

إن مجددى الإسلام بذلوا جهودًا جبارة ليعود إلينا الوعى الغائب! ومن عجب أن البعض الآن يفتح فمه لسبهم ، وينتقص أقدارهم ، إننا لم نستشف ـ بعد ـ من عللنا . .

وقد مضت حضارة الغرب فى طريقها لا يثنيها شىء ، غير أن الاستغراق فى الدنيا لا يحقق الخير لا للفرد ولا للمجتمع ، وقد كرع «أبو نواس» من اللذة حتى آخر قطرة ، ثم استيقظ من سكرته يقول :

إذا عرف الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق!

وكذلك يفعل الخراب الروحى ، وخواء الإيمان بأوربا وأمريكا ، إن الجماهير تشعر بالقلق والضيق ، ولأثبت هنا كلمة للأديب الكبير الأستاذ أحمد بهجت كتبها وهو يزور «لندن» يصور أثر هذه الحضارة : قال : «عيون الناس هنا ملونة ، وبشرتهم كشمع مسقى بالدم ، وابتساماتهم حاضرة وجاهزة لكل نظرة وأى سؤال . . رغم ذلك ، ثمة طيف غامض من الكآبة يلوح وراء ألوان العيون والبشرة ، ويتبدى فى هذا الصمت الذى يغرقون فيه حين يركبون المترو أو الأتوبيس . . .

هنا لاحد لجمال الناس ، ولكنه جمال يشبه جمال الجزر المنعزلة فى المحيط ، إن صفحة الماء الزرقاء تمتد بصمتها الفاجع وتحيط بالجزر من جميع الجهات . .

رغم العزلة المرشحة بعض الجمال ، ويكتسب الجمال شحوبه من العزلة النفسية ، حتى لتعكس أعين العيون قلقًا يبدو وسط يسر الحياة وسهولتها مثل حزن غير مفهوم فى عرس من أعراس الحياة . .

بالنسبة لكثير من الشرقيين تبدو لندن عاصمة مبهجة فى الصيف ، هى سوق عظيمة للمرح والمتعة والجمال والشباب واللهو والحرية . كيف تفسر إذن هذا البحث الذى قامت به إحدى شركات البحوث . وقالت نتائجه : إن مليون بريطانى يعانون من اكتئاب نفسى ، وإن من المحتمل أن يقدم ثلث هذا العدد على الانتحار بسبب الكآبة . . كيف تفسر أن معظم المصابين بالاكتئاب من النساء . .

استبعد البحث مشكلة البطالة كسبب رئيسى للكآبة . . وأشار إلى المشاكل الزوجية والمنزلية والإنسانية . . .

عاودت النظر فى وجوه الناس . .

أهؤلاء مكتئبون . .

إن النظرة السريعة تقول إن الناس تعيش وسط نعيم مقيم فى لندن . . كل شىء ميسر . . لا صوت للشوارع ولا صوت للناس ، وكل ما تريده موجود وحاضر ، هناك مكان فى الأتوبيس والمترو والتاكسى والقطار ، ليست فى الحياة اليومية معاناة كالحياة اليومية فى مدن العالم الثالث أو الشرق . .

إن المدنية الحديثة توفر للناس جهدهم الإنسانى وتقوم عنهم بأداء كثير مما كان يقتضى جهدًا بدنيًا أو عصبيًا . .

والخدمات أكثر من الحاجة إليها . والعرض أكثر من الطلب ، والتليفون لا يستعصى عليك ، ولا يتكلم معك فى الخط أحد . . لماذا يكتئب الناس إذن وحياتهم تمضى بهذه النعومة والكفاءة .

إن الحضارة الغربية تكشف هنا عن أحد أسرار الحياة . . إن للتخلف مشاكله وللتقدم مشاكله . .

وليست مشاكل التقدم بأخف فى الميزان من مشاكل التخلف ، هنا توفر الحياة للناس وقتًا يفكرون فيه فى حياتهم وهدف هذه الحياة ومصيرهم بعدها . .

وهنا يحس الناس بالوحدة القاسية رغم كل مبهجات العيش . .

إن الوضع الصحيح الوحيد للإنسان أن يكون تابعًا لله لا مستقلاً بنفسه ، وأن يسترشد بوحيه لا أن يغتر بفلسفته الخاصة . .

ما أضعف الإنسان إذا لم تسنده قوة ربه . . وما أشقاه حين يحرم بركته . .

٩٦. هل فى استطاعة الإسلام أن يقدم حلولا للمشكلات الكبرى التى تعانى منها الإنسانية اليوم؟

تقع المصائب والمشاكل عندما يفرط الإنسان فيما يجب عليه ، أو يستهين بما يمنع منه . . فحوادث الطرق تنشأ غالبًا من السرعة الزائدة عن الحد ، أو من التوقف المباغت ، أو من خروج المرء عن المسار المحدد له . .

ولو تبع الناس التعاليم الصادرة إليهم لوقاهم الله سيئات كثيرة ، ولكن ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾[1] .

ولسنا ننكر أن هناك أقدارًا قاهرة تعرض لنا بما نكره ، وتفاجئنا بما لا دخل لإرادتنا فيه وهذه المصائب والمشاكل لا نؤاخذ بوقوعها ، وإنما علينا أن نتصرف تجاهها بثبات وتسلم ، لا بجزع وتمرد فهى بعض بلاء الدنيا الذى نختبر به !! . .

ولكنى أستعرض مشكلات كبيرة فى عالمنا المعاصر ، فأجد أغلبها من صنع الناس . .

إنها تنشأ فى غياب الإيمان الصحيح ، والاستهداء بنور الله ، والاستشهاد بالعلامات الخضراء والحمراء التى تعصم من الزلل .

القلق الشديد محنة كامنة وراء الركض الوحشى طلبًا للرزق ، إن هؤلاء الراكضين قد يدوسون قواعد الحلال والحرام ، بل قد يدوسون العجزة والضعاف كى يصلوا قبل غيرهم . .

بم نفسر هذا السعار الذى ملأ الدنيا؟ لا تفسير له إلا الجهل بالله ، وبقيامه على الخلق وتدبيره للرزق . .

وأذكر هنا جملة من الحقائق الدينية غير خاش من تأويل الجهلة لها وانحرافهم بها . .

لو كان للإنسان صديق نبيل الخلق حلو العشرة ، مأمون الوفاء لجعله واحته الظليلة فى صحراء هذه الحياة! أفتكون صلة المؤمن بربه أنزل من هذه الصلة؟ ربه الودود المجيد ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[2] .

---

(١) الروم : ٤١ .

(٢) طه : ٨ .

إننا نحيا فى رحمته الواسعة ، ونعمته المبذولة ، وبركاته الهامية ، ولكن ذلك كله يشبه العافية التى قيل فى تبلد الشعور بها : **الصحة تاج على رءوس الأصحاء لايراه إلا المرضى . .**

إنه شيء مؤسف أن يقل إحساسنا بفضل الله الذى يغمرنا بالليل والنهار . . ثم يتضاعف جؤارنا بالشكوى إذا فقدنا بعض مانهوى! والغريب أننا نعتبر ما نفقده هو مصلحتنا المؤكدة ، أو الخير الذى حرمناه . . إن مواقفنا مع القدر تكرار لموقف موسى مع الخضر حين اعترض مايجهل عقباه . .

مع أن القصة ذكرت لتقول لنا : رب ضارة نافعة . . رب أمر أنكرنا بدايته وحمدنا نهايته ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1] .

هناك أبجديات للإيمان لو عرفناها لزالت مشكلة القلق والاكتئاب والتوتر التى تسود العالم . . وأرى أن الغرور البشرى أو إحساس الإنسان بأنه يقوم وحده من وراء تلك المشكلة . .

لقد خيل إلينا مع التقدم العلمى الجاف أننا مديرو هذا الكون ومالكو زمامه . .

وإن الإنسان يستطيع المضى وحده إلى هدفه دون صحبة من رعاية عليا ، أو مساندة من رب قدير . . وهذا هو الغباء المحض . .

إن المساحة التى تعمل فيها إرادتنا الحرة ضيقة جداً ، حقاً هى موجود بيد أنها محكومة بظروف لا دخل لنا فيها مذ ولدنا إلى أن نموت ، ما أغبى السمكة التى تظن أنها صنعت مياه البحار والمحيطات ، وأنها صنعت الخياشيم التى تستخلص بها أنفاسها وسط الماء . .

الواقع أن الخطط التى تحكم حياة البشر خفضًا ورفعًا وضيقًا وسعة جزء من الخطط التى تحكم الفضاء وتقلب كواكبه بين شروق وغروب . .

مبتدؤنا ومنتهانا وما بين ذلك يشرف عليه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] . . ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾[3] . . ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[4] .

(١) النساء : ١٩ . (٢) الملك : ١ . (٣) المؤمنون : ٨٨ . (٤) القصص : ٨٨ .

فما معنى تجاهل هذا الواقع ، الانطلاق فى الدنيا دون وعى ودون غاية ؟ . .

الإيمان بالله وصفاته هو لاغير حل تلك المشكلة! والإسلام يعرف الناس بربهم على نحو رائع مقنع مشبع ، يغمر اللب والقلب بهداه ويجعل المرء إذا كرب فزع إلى الصلاة! . .

ثم هو ينظر إلى ما أصابه وما أخطأه عارفًا : من يدبر الأمر؟ فيقول : **«اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»** .

وعند هذه الجملة الأخيرة نقف قليلاً . . فأصحاب الحظوظ الحسنة قد يكثرون أو يقلون فى هذه الدنيا ، غير أن مجرد وجودهم يثير الغيرة والتساؤل : لماذا أوتوا هذا الثراء أو هذا التقدم أو هذا الرجحان ؟ . .

ويؤكد الإسلام أن هذا الجد لايجدى أصحابه شيئًا ، ولا ينفعهم عند الله أبدا! إنه بعض ما يساءلون عنه يوم الحساب ، أو هو جزء من الاختبار الذى يكون للبعض بالجمع وللبعض بالطرح ، ولا امتياز هنالك! **«ورب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة»** وذلك من ثمرات الإيمان بيوم آخر . .

ومن المشكلات التى يشكو العالم منها الفقر المتوطن فى بيئات كثيرة ، وأحب أولاً أن أحدد المفاهيم حتى تنضبط الأحكام! أعرف موظفًا فى وزارة العدل يقوت أسرة كبيرة . عرضت عليه يومًا مائة جنيه كى يدع أحد الخصوم يستولى على وثيقة تفيده فى ملف تحت يده! وأبى الموظف الشريف مع أنه كان يبيت طاويًا ليعشى أولاده ، وكان بحاجة إلى جنيه واحد لا إلى مائة . .

هذا الفقير وأمثاله هم الذين قال الدين عنهم : **إنهم سواد أهل الجنة** . .

وأعرف أن الزعيم محمد فريد فقد ما كان يملك من أرض فى سبيل أسفاره كى يعرض شكوى وطنه من الاحتلال الإنجليزى! هذا فقر يذكرنا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين ضحوا بما لديهم فى سبيل عقائدهم . .

وأعرف رؤساء كانوا يملكون القليل أو ما كانوا يملكون شيئًا! فلما ولوا الحكم فاضت أنهاره عليهم سمنا وعسلاً ، فأضحوا هم وأقرباؤهم وأصدقاؤهم ومن يلوذ بهم أصحاب جاه عريض ومال ممدود! . .

هؤلاء الأغنياء من سحت هم الذين قال الدين عنهم : إنهم جمهور النار ، وبئس القرار . .

لكن هناك فقرًا نشأ عن آفات عضوية فى الكيان الإنسانى والملكات التى زود بها أصلا ، وهو الفقر الذى ينتشر فى الأقطار المتخلفة ، أو فى أرجاء العالم الثالث . . إنه فقر تعود وصعلكة ، وهو فقر ينكره الدين ، ويعد أصحابه آثمين ، أو عجزة ملومين! . .

إن الله سبحانه يسر كل ما فى الأرض من خير للإنسان ، ومكنه من ارتقائه . . ولم يطلب منه بإزاء ذلك إلا أن يعرف حقه ويشكر فضله ، فإذا جاء امرؤ أو جاءت شعوب ، وتجاهلت هذا البذل ، ورأت أن تعيش عارية بدل أن تكتسى! أو جائعة بدل أن تطعم ، فهى شعوب مجرمة . .

وقد رأيت ناسًا ينتمون إلى الإسلام - وهو انتماء مريب - يشبهون الثعالب التى تأكل من فضلات الأسود ، تراهم أمام قوى الكون ، وأسراره حيرى ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . .

إذا جاءهم الغيث شبعوا ، إذا هاجمهم الجفاف تصوروا وتسولوا . . لو وضعت مفاتيح الكنوز بين أيديهم لعجزوا عن إدارتها ، وبقوا وقوفًا أمام خزائنها المغلقة . . هؤلاء جديرون بالفقر يقينًا . . وعلاجهم يحتاج إلى تغيير نفوسهم . .

وإذا كان هؤلاء محنة فى الميدان الاقتصادى فهم كذلك محنة فى الميدان السياسى! . .

ذكرتهم وأنا أقرأ الكلمات التى كتبها أنصار زعيم المعارضة الفلبينى الذى قتل فى مطار «مانيلا» . . لقد وضعوا فوق رفاته هذه الجملة «**لا مكان للطغاة لو لم يكن هناك عبيد**» نعم ، إن أى فرعون لا يوجد إلا حيث يكون الأوغاد والأذناب . .

والفقراء من هذا الصنف يمدون أكفهم فى الأزمات ، وباسم الإنسانية قد يضع الأقوياء فى أيديهم بعض ما يستبقى الحياة ، ولا عليهم! فتبقى أيديهم السفلى وأيدى الأقوياء هى العليا ، لكن إلى متى؟ . .

إن الحل لمشكلة الفقر هو العمل لا الاستجداء ، هو فهم قوله تعالى للناس :
﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1] . .

وذلك يتطلب تغيير النفوس لتنتج بدل أن يكون قصاراها الاستهلاك . .

---

(١) الأعراف : ١٠ .

والمعاناة هى سلم الكمال ، ويعجبنى قول أبى الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم — الجود يفقر والإقدام قتال

وشعوب العالم الثالث تحسب السعد والنحس طوالع فلكية! أو كما صور الأستاذ مصطفى أمين يحسب أحدهم أنه يجلس على كرسى فى مقهى ، وكما يصفق بيديه طالبًا من الساقى «واحد شاى» يصفق طالبا «واحد حقوق إنسان» أو «واحد حريات شعوب» أو «واحد عدالة اجتماعية»! . .

ولندع مشكلة الفقر فطالما كتبنا فيها ، بل استفتحنا حياتنا الأدبية بالخوض فى مآسيها . .

ولننظر نظرة خاطفة إلى مشكلة أخرى هى السلام! وهى مشكلة قد يؤدى تجاوزها إلى أن يفقد العالم حياته وحضارته كلتيهما . بعد ما أصبحت أدوات الفتك ذريعة إلى إبادة جماعية . .

والساسة الذين يتحدثون عن السلام لهم منطق عجيب! فبنو إسرائيل ينشدون السلام بعد أن يدمروا الوجود العربى فى فلسطين ، ويضعوا الخطة لإقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى! . .

والروس ينشدون السلام بعد ابتلاع أفغانستان إلى جانب آسيا الإسلامية كلها ، واعتبار الدين خرافة لا معنى لبقائها . .

وجنوب إفريقيا تطلب السلام بعد إخماد أنفاس الزنوج وحرمانهم من منزلة البشر أو من مكانة الجنس الأبيض . . والأمريكيون يطلبون السلام بعد تأييد اليهود ودعم حقهم فى بناء المستعمرات على الأرض العربية وقولهم : خلقت إسرائيل لتبقى . . إلخ . .

إن العالم أمام لون من النفاق والتبجح يستحيل أن يبقى معهما سلام . .

العدل أولا ثم المطالبة باحترامه ، والتسلح للذود عنه . .

ويستحيل أن يوجد سلام ؛ ما حكم الدنيا منطق الغابات . .

إن القرآن الكريم ناشد أهل الإيمان أن يحرصوا على السلام ، ويستريحوا إليه :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ٢٠٨ .

فماذا يحدث إن أعرضوا عن هذا النداء؟ ستمتلئ الأرض بالأحزان والخراب ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾(١) .

لقد قرأت قصصًا أليمة عما يصيب الرجال والنساء والأطفال فى أثناء الحروب من أسى وضياع يهتكان الأستار ، ويسترخصان العار! ورأيت صورًا قابضة مبكية للجثث على عرض الطريق أو تحت الأنقاض ، أمست رفاتا هامدًا وولت عنها بشاشة الحياة وآمالها العراض . .

إن الحرب شىء كريه حقـا ، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها . .

وفى الأديان السماوية كلها لم يأذن الله بحرب عدوان ، وإنما أذن فى حرب تحمى بها الحقوق وتصان الحقائق ، وتبقى فيها بيوت الله قائمة لعبادته وحده . .

وفى قراءة صحيحة يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾(٢) .

ورب البيت لا يطالب بالإستسلام للص المغير إيثارًا للسلام ، وصاحب العقيدة لا يكلف بتركها تحت بريق السيوف . .

وإذا خلصت النيات يمكن إقامة مؤسسات عالمية للحفاظ على السلام ، بعد غسل النفوس من الأثرة والبغى ، وإشعارها بأنها أولاً وآخرا من الله بدأت وإليه تصير .

(١) محمد : ٢٢ ، ٢٣ . (٢) الحج : ٤٠ .

٩٧. بم تفسر النكسات التى أصابت الأمة الإسلامية، بدءا من الخلاف الداخلى بين على ومعاوية حتى يومنا هذا؟

أجمع أولو الألباب من عدو وصديق على أن الإسلام عقائد وشرائع ، وعبادات ومعاملات ، وأخلاق ونظم وتراتيب إدارية وتقاليد اجتماعية . . وإنه يكلف أتباعه بتطويع الشئون العادية لخدمة ذلك كله . .

وكنا فى أثناء دراستنا الإسلامية نعرف الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامى ، وبين الإسلام والحكم الإسلامى . . الإسلام وحى معصوم لا ريب فيه ، أما الفكر الإسلامى فهو عمل الفكر البشرى فى فهمه ، والحكم الإسلامى هو عمل السلطة البشرية فى تنفيذه ، وكلاهما لا عصمة له . .

وعندما يخطئ مفكر فإن خطأه لا يبقى طويلا حتى يستدرك عليه مفكر آخر .

وعندما يخطئ حاكم فإن زلته لن تطول حتى يصوبها ناقد راشد . .

والأمة الإسلامية ـ بفضل الله ـ لا تجمع على خطأ ، وجهاز الدعوة بها حساس ، وهو عن طريق التعليم والأمر والنهى ينصف الحق . .

ولما كانت هذه الأمة حاملة الوحى الخاتم فإن القدر يؤدبها إذا استرخت أو فرطت حتى تلزم الصراط المستقيم ، ويتعهدها بالمجددين الذين يغارون على حقائق الوحى وسبل فقهه وأساليب حكمه . . قال تعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾(١) .

ومن هذا التقديم يظهر أنه لا غرابة فى وجود أخطاء فى تاريخنا الثقافى والسياسى ، وإنما الغرابة فى التستر على هذه الأخطاء أو الاستحماق فى معالجتها والتعفية على آثارها . .

وجمهور المسلمين يعلم أن سلفنا الأول شغله قتال الاستعمارين الرومى والمجوسى ، ولعله أشرف قتال عرفته الدنيا ، ولكنه يشعر بغضاضة وألم لما أعقب ذلك من قتال داخلى بين المسلمين أنفسهم كانت له آثار بعيدة المدى على حاضرهم ومستقبلهم . .

(١) الأعراف : ١٨١ .

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد أن على بن أبى طالب ـ الخليفة الرابع ـ كان إمام حق ، وأن معاوية بن أبى سفيان كان يمثل نفسه وعصبيته فى خروجه على عَلِىٍّ . .

وشاء الله أن يكسب معاوية هذه المعارك ، ومن ثم تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض فى بنى أمية . .

ومع أن هذا التحول كان هزيمة للحق ، وضربة موجعة للمثل العليا إلا أنه من الغلو المرفوض تضخيم نتائجه لما يأتى :

(أ) إن الخلفاء أو الملوك الذين ولوا أمور المسلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا أن ولاءهم للإسلام . . وأن التغير فى أشخاص الحاكمين لا يعنى التغير فى القوانين أو الأهداف الإسلامية ، ومن أجل ذلك استأنفوا الجهاد الخارجى ، كما تركوا للفقهاء حرية الحركة ، ما لم يمسوا سلطانهم فى الزعامة . .

(ب) إن العلم الدينى مضى فى طريقه يوسع الآفاق ويربى الجماهير ، ويقرر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية ، أى إن الإسلام الشعبى مع ازوراره عن السلطة بقى قديرًا على الامتداد والتأثير . .

(جـ) مع أن الدولة كانت عربية ، تتعصب لجنسها فإن الجماهير والت تعاليم الإسلام وحدها ، وألقت قيادها فى أغلب العواصم لفقهاء ودعاة مربين من الأعاجم! . .

وأجدنى هنا مسوقًا لتوكيد حقيقة مهمة : إن الجنس العربى له خصائص رفيعة رشحته لظهور الإسلام فيه ، واختيار النبوة منه ، وهو إلى جانب ذلك جنس له نقائص منكورة مثل الاعتزاز بالنسب إلى حد السخف وازدراء الحرف من فلاحة وصناعة ، والحرص على الإمارة ولو بطريق اللف والخطف . .

وقد أفاد الإسلام من خصائصه ، وخبر من نقائصه ، ومن أجل ذلك نريد أن نضع فواصل بارزة بين التعاليم الإسلامية والتقاليد العربية ، فإن الأخيرة غلبت الأولى فى مجالات كثيرة .

إن أسرتين عربيتين احتكرتا فى ذراريهما مهام الخلافة العظمى بضعة قرون إلى أن سقط الإسلام بحكامه هؤلاء تحت وطأة التتار فى بغداد ، وتحت وطأة الصليبيين فى الأندلس . . بأى منطق وقع ذلك؟ . .

إن دينا عالمى الشرائع والشعائر لا يحتمل هذا السفه !

وجاء العثمانيون فقلدوا العرب ! ولماذا يكون عثمان التركى أقل من حرب أو هاشم المولودين فى بطحاء مكة؟ لقد بقيت هذه الغلطة حتى أنزلت لواء الخلافة عن الأستانة وحلت بالإسلام نكبة هائلة مهينة . .

وأرى أن الروح القبلية عند العرب كانت من وراء هذا الانحدار كله ، قديمه وحديثه . .

وعلى العرب أن يحترموا الإسلام ، وليس على تعاليم الإسلام أن تلين للتقاليد العربية .

والعرب ـ مع بعض الأمم القديمة ـ كانوا يؤخرون المرأة ، ويضيقون بالأنثى! كان الهنود يحكمون على الزوجة أن تنتحر بعد وفاة زوجها! وكان عرب كثيرون يئدون البنت بعد ولادتها . .

وجاء الإسلام فأعلن حربًا شعواء على هذه التقاليد الهمجية ، إلى أن رد للمرأة كرامتها ، وصان حقوقها المادية والمعنوية . .

لكن الاستهانة بالأنوثة بقيت كامنة فى النفوس ، تنشئ تقاليد وتمحو أخرى حتى كادت تعاليم الإسلام تطوى وتحل محلها التقاليد العربية الأولى . .

وظهر ذلك أول ما ظهر فى حرمان المرأة من التعاليم ، ومن حرمانها من غشيان المساجد ، والصلاة فى الجماعة ، وقد وازنت بين النصوص الواردة والشروح المصاحبة لها فرأيت النقائض المضحكة . .

جاء فى الصحاح عن أم عطية رضى الله عنها قالت : أمرنا رسول الله ﷺ فى الفطر والأضحى أن تخرج العواتق ـ الشواب البالغات ـ والحُيَّضُ ، وذوات الخدور ـ المكنونات فى الأستار ـ ولكن الحُيَّض يعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين! قلت : يارسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب! قال : لتلبسها أختها من جلبابها . . أى تستعير من إحدى المسلمات جلبابًا وتخرج لتشهد الجماعة . .

قال صاحب التاج ، الجامع للأصول فى أحاديث الرسول : هذا كان فى سالف الزمان! . . أما الآن فلا يجوز خروجهن لما هن عليه من زيادة التبرج ، إلا العجائز إن كان لهن مكان خاص . .

وصاحب التاج غفر الله له يتابع فى هذا الحكم علماء السنة من قبله ، فإن شروحهن غالبًا لا تخرج عن هذا المعنى . .

والواقع أن أولئك الشراح يذهبون بعيدًا عن مراد الرسول ﷺ ، وتجرفهم التقاليد العربية ، فينسخون بها أحكام الشريعة ، ومقررات الدين . .

وفى حديث جابر ـ وهو فى منتهى الصحة ـ أن امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين ، استفهمت من الرسول عن بعض ما قال فى خطبة العيد . . والسفعاء الحمراء وزنًا ومعنى ، أو التى فى حمرة خدودها سمرة ! . .

وظاهر أن المرأة كانت سافرة الوجه دون حرج ، وهذا أمر يمارى فيه المتعصبون لبعض التقاليد الموروثة . . أما تعاليم الإسلام فموضع نظر ؛ لأنها تخالف ما ألفوا من تقاليد . .

ومن النكسات التى أصابت جماعة المسلمين ، وأوهنت قواهم من قديم ، انفصال الحكم عن العلم ، وسير كل منهما فى مجرى اختص به ، لقد كان الخلفاء الراشدون حكامًا وفقهاء معًا .

ولست أعنى بالفقه الاستبحار فى تفاصيل العبادات وفروع الأحكام كما يتصور الناس ، كلا . . كلا! . . إنما أعنى بالعلم إدراك الأصول والغايات العظمى لدين الله ، وإدراك ما يدعمها من حجج وما يشين غيرها من شبه ، والقدرة النفسية على الغرس والحصاد ، والكر والفر . .

إن المرء ليغوص فى بحار الحيرة عندما يرى كرادلة العالم النصرانى يختارون أدهاهم وأذكاهم وأجلدهم على خدمة الدين ، وعندما يرى معتنقى الشيوعية يختارون أقدرهم وأمهرهم وأشجعهم على خدمة المذهب! على حين يقود المسلمين على مر التاريخ رجل أعظم مؤهلاته أنه ينتمى إلى المأسوف على شبابه أمية بن حرب! أو الصحابى المعروف عباس بن عبد المطلب [1] أو ابن الأناضول عثمان بن هيان بن بيان! . .

إن أولئك الخلفاء لا ترشحهم مواهبهم الخاصة لمنصب ذى بال ، وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله إلا مايشجب هذا المسلك ، بيد أن تقاليد العرب اعوجت بتعاليم الإسلام كرها ودفعتها فى هذا المجرى .

ونشأ عن ذلك أن العلم بدأ يستوحش ، وقد كابر وقاوم واستمسك بحقه فى الحياة مستمدًا كفاحه من تعاليم الإسلام ، وما بقى له من كرامة بين الجماهير . .

لكن العلم ، وأعنى الدينى منه خاصة ، أخذ ينحدر ، وتقل وجاهته ، وانصرفت عنه كل الانصراف الطبقات الثرية ، أو المرشحة للوظائف العليا ، ولم يبق على الوفاء له إلا بعض المغامرين بأولادهم فى سبيل الله . . أو بعض الذين عز عليهم السير فى ميدان آخر من ميادين المعرفة فرضوا بما لا محيص عنه ، أو لا مفر منه . .

ومن انفصال العلم عن الحكم ورث المسلمون المعاصرون مشكلتين جديرتين بالنظر العميق الأولى : هجرة العقول الكبيرة إلى الغرب ، والأخرى : رداءة الأوعية الحاملة للفقه ، وطلبها للدنايا تحت أقدام المستبدين .

(١) نحن نحب نبينا من أعماق قلوبنا ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى شرح لنا سنن الخلافة الراشدة فليس لأحد من أسرته أن يحبسها فى ذريته بضعة قرون .

٩٨. هل نجح الإسلام فى تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل ؟

عندما قرأت هذا السؤال أسرعت بالقول : لماذا لا يوجه هذا السؤال إلى الدينين السابقين عليه من الناحية التاريخية؟ هل أحدهما أو كلاهما حقق أهدافه ، وفرض على العالم صبغته؟ . .

سكان العالم الآن أربعة مليارات ونصف تقريبًا ، فيهم مليار مسلم ، ومليار نصرانى ، ومليار وثنى ، والباقى شيوعيون! تلكم هو الانتماء الظاهر الذى يمكن إحصاره . .

غير أنى أنظر فى الإجابة من ناحية أخرى ، أن الإسلام لا يمثل نفسه عندما يفشل فى سوق الأحياء جميعًا تحت لوائه! إنه يمثل الأديان كلها فى الحقيقة ، فمعنى أنى مسلم أنى أؤمن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأيدوه ، وأومن كذلك بعيسى كواحد من حوارييه الذين يحبونه وينصرونه! كل ما هنالك أنى لأضم إلى الإيمان بهذين الرجلين الصالحين! إيمانًا برجل آخر هو أخ لهما ومحيى لتعاليمهما ، رجل تلقى عن ربه هذه العبارة ﴿ ما يُقَالُ لَكَ إلاَّ ما قَدْ قِيلَ للرُّسُلِ من قَبْلِكَ ﴾[1] .

فإذا لم ينجح أتباع محمد فى بسط دعوته على الناس ، فمعنى ذلك فشل الدين كله والرسل جميعًا ! . .

هذا عندما يكون الرفض لحقائق الرسالة المعروضة! أما إذا كان الرفض لسوء خلق العارض وفقدانه الوعى الصحيح ، فإن اللوم أو التساؤل لا يوجه إلى الإسلام ، بل إلى الأمة التى أساءت البلاغ ، وشانت المبادئ التى تحملها! ويبدو أن ذلك هو المقصود من السؤال . .

وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال يجب أن يصاغ على هذا النحو : هل نجح المسلمون فى خدمة رسالتهم خلال القرون الأربعة عشر ، أم كان فشلهم أغلب؟ . .

ومع أنى شديد اللوم لأمتى ، دائم التقريع لها فإننى لا أستطيع أبدًا الزعم بأن

(١) فصلت : ٤٣ .

اليهود أو النصارى كانوا خيرًا منها حالاً ، ولا تخدعنى الهزائم السياسية المعاصرة عن تقرير الحقيقة . . فلا يزال المسلمون برغم جراحاتهم الخطيرة أولى بالله ، وأعرف برسالاته ، وأملك لأسباب العافية ، وأحق بالبقاء . .

وما قدموه للعالم ، وما ينتظر منهم تقديمه يرجح كفتهم ، ويعلى حجتهم . .

إن الإسلام انتقل بالحياة البشرية نقلة حاسمة فى عدة مجالات :

(أ) نقى عقيدة الوحدانية من كل شوائب الشرك .

(ب) رفض أى عنصر فى الإيمان يناقض العقل .

(جـ) أقر المساواة فى الحقوق والواجبات على اختلاف الألوان والأديان . .

(د) خفف من ويلات الحروب وحرم الدمار الشامل .

ومع ماتعرض له التاريخ الإسلامى من مد وجزر ، وذبول وازدهار ، فإن الأمة الإسلامية فرضت طابعها المتميز على الفكر البشرى ، وجعلت خصومها يراجعون أنفسهم ، ويجمدون بعض مواريثهم أو يتخلون عنها . .

كانت صورة الألوهية مفزعة فى كلمات بعض المتحدثين عن الله إذ يبدو رب العالمين وكأنه شخص حاسد ذاهل يخطئ ويندم ويجهل ويتراجع ، ويفتقر إلى من يرشده ويصحح له عمله . .

تأمل فى هذه العبارات : لما قرر الله الانتقام من بنى إسرائيل بعد عبادتهم للعجل قال موسى له : ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك! فندم الرب على الشر الذى قال : إنه يفعله بشعبه! . .

وفى مكان آخر : فندم الرب واغتاظ لما أغضبه بنوه وبناته . .

فندم الرب على أنه ملك «شاول» على إسرائيل ! .

الرب كجبار يبرز ، وكرجل قتال يثير غيرته ، ويهتف ، ويصرخ ويظفر على أعدائه . .

سطع دخان من أنفه ، ومن فيه نار آكلة جمر متقد ، طأطأ السموات والضباب تحت قدميه ، ركب على كروب وطار ، وخطف على أجنحة الرماح . . إلخ . .

وقد يعجب المرء عندما يرى أن الله أخرج آدم من الجنة غيرة منه أو خوفًا من مزاحمته له . .

والنص الوارد أنه حظر على آدم الأكل من شجرة المعرفة خشية أن يكون مثله . .

إن عقيدة الوحدانية والكمال المطلق لله سبحانه وتعالى كما عرضها المسلمون ، قهرت وبهرت وجعلت العالمين يستكينون إليها ويتجاهلون ما عداها أو يذكرونه بحياء وإغماض! . .

وهذا أثر إسلامى لا مثيل له . .

وقد غالى المسلمون بالحكم العقلى ، وقرروا أن ما يرفضه العقل يستحيل أن يكون دينا . . بل هو أهواء البشر . . وهذه النزعة الإسلامية شقت طريقها إلى مستقبل الإنسانية ، وتخاذلت أمامها الملل والنحل .

ويسوؤنا أن نتهم الحضارة الحديثة بأنها لاتزال تحترم التفرقة العنصرية ، وتتعامل مع الأجناس الملونة ، ومع معتنقى الإسلام خاصة بمشاعر الضغن والزراية! . .

إن القوانين ـ من الناحية النظرية ـ تلغى هذه التفرقة ، أما من الناحية العملية فالحيف ينزل بالضعاف من المسلمين والزنوج دون حرج ، وقد أصدرت هيئة الأمم المتحدة ٢٥٠ (مائتين وخمسين) قرارًا لمصلحة أهل فلسطين ، لم ينفذ منها قرار واحد! .

ولم يعرف المسلمون بتة حروب الإبادة الجماعية ، ولم يعرف العالم فاتحًا أرحم من العرب ، بل إن الأكراد والأتراك المسلمين كانوا أعف ألف مرة من الدول الأوربية الغابرة والحاضرة على سواء . .

وطيبة المسلمين إلى حد الغفلة المعيبة هى التى تجعلهم ينسون ما حل بآبائهم وإخوانهم فى أيام نحسات . .

لقد غزا «نابليون» مصر والشام فقتل فى الشام أربعة آلاف أسير بعد ما أمنهم على حياتهم . .

واستحر القتل بسكان مصر فى الوجهين البحرى والقبلى والعاصمة نفسها حتى اهتز عدد السكان . ولا يريد أن يذكر هذا أحد .

ويظهر أن اغتيال الأسرى على كثرتهم داء قديم ، فإن صلاح الدين الأيوبى أرسل إلى «ريتشارد» ملك إنجلترا ـ وكان على رأس حملة صليبية تقاتل المسلمين فى الشرق ـ أرسل إليه بفدية كبيرة ليفك قيود هؤلاء الأسرى فماذا حدث؟ . .

إليك ما كتبه «ستيفن رنسيمان» فى الجزء الثالث من «تاريخ الحروب الصليبية» بعد ما شرح مراوغات «ريتشاد» وتعنت مفاوضيه قال : أضحى «ريتشارد» حريصا على أن يغادر عكا وأن يزحف على بيت المقدس ، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له ثم انشرح صدره للخلاص منهم بعد ما دبر اعتذارًا رآه مقبولا ، قال : إن صلاح الدين نقض عهده معه ، ومن أجل ذلك فقد أمر بالإجهاز على ٢٧٠٠ ألفين وسبعمائة أسير مـن الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا! . . قال المؤلف : « . . واشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة ، وحمدوا الله فى جزل وسرور . . حسبما يروى المدافعون عن ريتشارد - فقد هيأ لهم فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة أثناء الهجوم عليها ، ولقى زوجات الأسرى وأطفالهم مصارعهم إلى جوار رجالهم ! . .

ولم يبق الصليبيون إلا على بعض رجال يستفيدون منهم فى أعمال السخرة ، وبعض الأعيان ، أما الباقون فقد فنوا جميعًا ، وشهد المسلمون المرابطون فى أقرب المعاقل إلى عكا ماقد حدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم وأهليهم ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام فقد عجزوا عن الوصول إليهم . .

ولما انتهت المذبحة غادر الإنجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة ، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم الذين استشهدوا . .

لندع هذا المشـهـد الكئيب ، ولنترك دلالاته البينة ، ولننتقل مع «ستيفن رنسيمان» إلى مشهد آخر ذكره فى الجزء الثانى من كتابه بعد ما انتصر صلاح الدين فى حطين . . قال : «وقبل صلاح الدين أن يضع شروط الصلح ، فعرض بأن بوسع كل مسيحى أن يفتدى نفسه ، على أساس عشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار للطفل ، وعندئذ أشار باليان إلى أن بالمدينة حوالى عشرين ألفًا من الفقراء ، ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغًا إجماليا ، لافتدائهم ورضى صلاح الدين بأن يقبل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألفًا ، غير أن باليان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم ، فتقرر إطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار وبناء على أوامر باليان ، ألقى العسكر السلاح . وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، ويوافق هذا التاريخ السابع والعشرين من رجب ، الذى يجرى فيه الاحتفال بعيد الإسراء ، حين أسرى النبى إلى بيت المقدس ، ثم ارتقى إلى السماء . .

والواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه . إذ صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صـلاح الدين ، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين . وفى تلك الأثناء حرص كل مسيحى على أن يلتمس المال اللازم لافتدائه . وأخذ باليان كل ما فى بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء ، وقدرها ثلاثون ألف دينار . ولم يخرج الاسبتارية والدواوية عن شىء من أموالهم إلا بصعوبة ، ولم يحفل البطريرك وهيئة الكنيسة إلا بأنفسهم ، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدى عشرة دنانير ، مقدار الفدية المطلوبة منه ، ويغادر المدينة . وقد انحنت قامته لثقل مايحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التى تحمل ما بحوزته من الطنافس والأوانى المصنوعة من المعادن النفيسة . وبفضل ماتبقى من منحة الملك هنرى الثانى ، تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء . وقد كان يصح أن ينجو من الاسترقاق ألوف عديدة من المسيحيين لو أن الاسبتارية والدواوية والكنيسة كانوا أكثر سخاء . ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين . تألف الأول من أولئك الذين افتدوا أنفسهم ، أو تم افتداؤهم بفضل جهود باليان . أما الطابور الثانى فشمل أولئك الذين لم يستطيعوا افتداء أنفسهم ، ولذا توجهوا إلى الأسر . ومن المناظر التى تدعو للأسى والحزن ، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير ، على سبيل المكافأة عن خدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق العادل على الفور سراحهم . وقد ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم ، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير ، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير . ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز . ولما أقبل نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن ، وقد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن ، بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر ، أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن .

وبذل الأرامل واليتامى من خزانته العطايا كلٌ بحسب حالته . والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى» . .

إن الأمة الإسلامية ـ برغم تعاسة الظروف التى ألمت بها ـ أرست قواعد خير كثير فى هذه الحياة ، وما يبقى لها بعد معادلات الحذف والإضافة يزينها ولا يشينها . .

وأعرف أن خصومها أصفق وجوها وأقدر على فعل المناكر ودفنها فلا تعرف ، وأجرأ على تلمس العيوب للبرآء ، والإصرار عليها حتى تثبت . .

وفى عصرنا هذا أمر رجل دين أحمق فى غيانا بأمريكا الوسطى ألف شاب بالانتحار الجماعى ، فماتوا كلهم فى صمت! ولو فعل شيخ مسلم واحد فى المائة من هذه المأساة لدمغت الأمة الإسلامية بعار لاتقدر على الإفلات منه! ولنسب للإسلام كل شر ! . .

وما ننكر أن هناك منصفين صارحوا بفضل الأمة الإسلامية على العالم وآخر ماقرأنا لهؤلاء كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» لأستاذة ألمانية طاهرة الذمة . .

صحيح أن المسلمين اليوم فى أوضاع بالغة السوء! وصحيح أن فساد الحكم حقبا طويلة من وراء هذا الانحدار ، بيد أن الأمة الجريحة لاتزال أنبل من قاتليها ، ولاتزال ثروتها الروحية أجدر بالتقدير ، وأحق بالتقديم . .

إن الذكاء الأنانى فى أوربا وأمريكا سيجر الويل على أصحابه وقد يجره على العالم كله ، ما لم يرحمنا الله . .



٩٩. كيف تتصور مستقبل الإسلام فى عالم الغد؟

حاضر المسلمين يقبض الصدر ، وقد يبعث على التشاؤم! ولكنى واثق من أن هذه المحنة ستنجلى كما انجلت محن أخرى فى أيام مضت . .

على أن انجلاء المحن لايشبه انقشاع السحب ، نرقبه ونحن مكتوفو الأيدى . . كلا ، لابد من عمل جاد وسعى لاغب . . أو كما قلت فى موضع آخر : لابد أن يعتنق المسلمون الإسلام يقينا وخلقًا ونشاطًا وفكرًا . .

أما مع النقائص الموجودة فيستحيل أن يكسب المسلمون خيرًا . .

إن أعصابا نفسية وعقلية أصابت كيانهم بشلل لا تعرفه أمم أخرى ، وألحقت برسالتهم مهانة كبيرة . . أقول ذلك وأنا أقرأ كلمات للمهندس ماهر أباظة وزير الكهرباء جاء فيها : إن قطاع الطاقة ظل يبحث منذ خمس عشرة سنة عن سر صناعة مادة معينة فى العازلات الكهربائية دون جدوى فقد رفضت الشركات الأجنبية ـ نحو سبع شركات ـ أن تعطى أسرار هذه التكنولوجيا حتى تبقى المصدر الوحيد لها وحتى تبيعها وفق شروطها . .

قال الوزير : ثم تطوع العلماء الصينيون بإخبارنا أن المواد التى تصنع منها هذه العازلات موجودة فى تربتنا ، وأنهم سيرسلون خبراءهم ليرشدونا إليها فى بلادنا!! . .

علماء الصين درسوا طبيعة أرضنا فى البحر المتوسط إننى لم أدهش للخبر . . لأنى لما ذهبت إلى «نواكشوط» عاصمة موريتانيا عرفت أن المياه التى تغذى العاصمة تأتى من آبار جوفية اكتشفها الصينيون ، وقاموا بمد أنابيبها إلينا ، لقد عرفوا وهم على المحيط الهادئ خيرات أرضنا على المحيط الأطلسى . .

قلت لنفسى : إننى أعرض الدعوة الإسلامية كلامًا ، وهؤلاء الصينيون يعرضون الدعوة الشيوعية عملاً . . وخامرنى حزن عميق . .

ومضيت أتابع ما قرأته فى موضوع العازلات الكهربية ففوجئت بأمر آخر ، لقد تكلم عالم مصرى هو الدكتور عصام حسن يقول : إن مادة الكولين التى تنتج العوازل المطلوبة موجودة فى سيناء وفى كلابشة ، وإن إمكانات استخدامها قدمت

إلى الإدارة المصرية من سنين طويلة ، وهى إلى الآن حبيسة أدراج بعض الرؤساء! قال : وإن العلماء الصينيين لم يعرفوا نبأ هذه المادة إلا من كتابات وبحوث العلماء المصريين التى نشروها فى الخارج !

لقد صدقت هذا التعليق ، وأدركت أن المحنة ليست جهلنا ، وإنما هى تبلد بعض الرؤساء أو هى ما أشرت إليه فى إجابة سابقة ، انفصال العلم عن الحكم فى أغلب البلاد الإسلامية .

فالأمر كما قيل :

إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة   أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم!

ويظهر أن هناك نوعين من الشلل الجزئى يقطع دورة الإحساس فى الكيان الإسلامى العام ، ويقعد الأمة عن أداء رسالتها الكبرى . . ذاك لو بقى لدينا شعور بأننا نحمل للعالم رسالة كبرى . .

إن الوهن الذى حل بالمسلمين دوّخهم ، وجعل أبصارهم عند مواطئ أقدامهم .

ولكى نطمع فى استماع الناس إلينا يجب أن نقول ما يعقل! أو نعقل ماقيل لنا فى كتابنا ونكون نموذجًا حسنًا له . .

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقول بعض «العلماء» : الحاكم يمضى فى طريقه دون اكتراث بالشورى ؛ لأنها غير ملزمة له؟ هل تخدم الفرعونية بأفضل من هذا اللغو . .

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقال فى حكومته : إنها حكومة الحزب الواحد؟ . .

إن أقمار التجسس الأمريكية صورت الطائرة الكورية التى أسقطت قريبًا من قاعدة عسكرية روسية ، ولا يزال بعض علمائنا يحارب التصوير بضراوة ، ويراه وثنية! . .

وبعضهم حكم بأن وصول الأمريكيين إلى القمر خبر آحاد ، لا يفيد العلم ، وأن الأمر إشاعة . .

ولنترك هذا الهزل إلى آفة تخدش الفكر الدينى! إن مناقشة السند أو التمحيص النظرى للحكم المروى أساس الحكم فى القضايا المعروضة ، أما ملاحظة الآثار الاجتماعية عند ترجيح اجتهاد على اجتهاد فلا يلتفت إليها . .

ومن هنا استبعد رأى ابن تيمية فى رفض الطلاق البدعى ، ورفض الآثار المترتبة عليه . .

واستبعد رأى أبى حنيفة فى أن المسلم يقتل فى الذمى أو أن المرأة تباشر عقدها ، وكان العمدة عند المستبعدين مجرد النظر فى قواعد الاستدلال ، أما استقصاء الأبعاد الاجتماعية لهذه الأحكام الفرعية العملية فلم يرد على البال . .

ونحن لا نهون من قيمة الاستدلال فى القضايا الاجتهادية ، وإنما ندعو إلى احترام التقاليد المستقرة فى بيئات كثيرة مادام لا يصادمها نص ، كما نرفض التشبث باجتهاد ما إذا كان يعوق سير الدعوة الإسلامية ، فلا وزن لاجتهاد فرعى يعترض انتشار الأصول والأركان . .

وإذا رأينا أن الأوربيين يقبلون الإسلام لو سمحنا للمرأة بالقضاء فى الدماء والأغراض ، وولاية المناصب العامة فليدخلوا فى الإسلام! وليعلموا بمذهب ابن حزم! أليس ذلك خيرا لنا ولهم ؟ .

وقد أمسى الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة بعد ما اقتحمت دار الإسلام من أقطارها ، ومن أبجديات الجهاد العلم بكل ما أودع الله من قوى فى أرجاء البر والبحر والجو ، إن هذا العلم الضرورى يسبق علومًا كثيرة ظهرت أيام الترف والتفوق ، بل لقد أمست علوم اللغة العربية من فروض العين على المثقفين ، بعد ما تدحرجت هذه اللغة ، وأسقطت مكانتها عن عمد . .

ومن النفاق أو الجبن شغل المسلمين بنوافل علمية أو عملية قبل استكمال الفروض المهملة . .

بناء الأمة الإسلامية من جديد يفرض على الساسة والدعاة والفقهاء أن يمعنوا النظر ، ويطلبوا التفكير ، وأن يحاربوا بجهد متساو الغزو الثقافى الوافد من الخارج والانحرافات الكثيرة المتوارثة من الداخل . .

وللأخلاق قصة لايجوز إغفالها . . هناك أخلاق تنشأ من حسن معرفة الله ، أو من صدق عقيدة التوحيد ، أبحث عنها فى سلوك خاصة وعامة فلا أجدها . .

هل أستطيع وصف رجل يخاف الناس ولا يخاف الله ، ويسترضى الناس ولا يسترضى الله ، ويتوكل على الناس ولا يتوكل على الله ، هل أستطيع وصف هذا المخلوق بأنه مسلم؟!

وهناك جملة أخلاق تقوم على محو النفاق وتزكية السريرة وتنضبط بها الأعمال والأحوال ، نبه إليها النبى العظيم الذى قال : «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» ، إنه أحصى أمارات النفاق فى الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة ونكث العهود والفجور فى الخصومة! ماذا يقول المسلم؟ . . إذا كانت مجتمعات أخرى أحرص منا على الصدق والأمانة والوفاء والسماحة؟ . .

ولقد رأيت نظافة القرى والمدن فى أمم شتى ، ورأيت النظام الصارم يشيع بين مشاتها وركابها وألقيت نظرة خاطفة على بلادنا ثم شعرت بغصة . .

لا أدرى ماذا حدث لنا؟ إننا نموت ونميت ديننا معنا !

ورأيت عمالاً يكرهون الإتقان ، وموظفين يكرهون الخدمة العامة ، ورؤساء يشبعون مركبات النقص أو عقد الوضاعة وينظرون إلى الجماهير من أعلى . . وهم آلهم وعشيرتهم . .

إن قضايا الأخلاق أخطر من قضايا أخرى لاسيما والخلق عندنا يتركز على الإيمان بالله ، ولا يتركز على فلسفات بشرية أو مادية ، وذلك يعنى أن هدم الإسلام - وهو دين أكثر من تسعة أعشار العرب - لا ثمرة له إلا ضياع الأخلاق يقينا . .

وعندما يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾(١) .

فلا تنتظر عدالة ، ولا شهادة نقية من شخص خرب القلب! والواقع أن الذين ينتقصون الإسلام ويعبثون بشعائره يهزون الأخلاق هزا ، وينشئون أجيالاً لا تصلح فى حرب ولا سلام . .

وليس بقائم بنيان قوم — إذا أخلاقهم كانت خرابا !..

يجب أن تقوم للإسلام أمة تعمل به ، وتعطى صورة صادقة له . . ومن السفاهة تكليف العالم أن يدرس الإسلام مجردًا من سيرة معتنقيه . . وتحميله مسئولية فلسفية عن كفره وإيمانه بعد تلك الدراسة العجيبة . .

وأرى أن الصحوة الإسلامية المعاصرة مكلفة بتكوين هذه الأمة الجديدة ، وإنصاف رسالة الإسلام من هذا البلاء . .

(١) النساء : ١٣٥ .

ومع تمام هذا التكوين نعرض أنفسنا على ساكنى القارات المعمورة ، واعتقادى أن النجاح سيكون حليفنا ، فإن لصاحب الحق مقالاً ، وللحقيقة سناؤها وإغراؤها ، وقد سئم الناس ما صحب الحضارة الحديثة من جفاف وإباحية ، ومن شره ووحشية ، ومن بعد عن الله وكفر بلقائه . .

وفى حقائق الإسلام ، وشعب الإيمان الجامعة الجليلة ما يغنى ويستحق كل حفاوة . .

وفى لقائى ببعض الكبار الذين أسلموا رأيت أن الجانب العاطفى من الإسلام هو الذى اجتذب الانتباه ، أو المنطق العقلى للقرآن الكريم ، أى أن القوم ينشدون ما ينقصهم . .

وهنا ألفت النظر إلى أن بالإسلام أصولا صلبة ، وفروعا مرنة ، وفيه أقوال وآراء نسبتها إلى الناس أقرب من نسبتها إلى رب الناس ، والدعاة الراشدون يعرفون واجبهم بإزاء هذا كله . .

وأخشى أن يذهب داعية ليطعن فى قانون السببية ويزعم أن النار لا تحرق بحرها ، وأن السكينة لاتقطع بحدها ، كما هو مقرر فى كتب الكلام عندنا . .

أو ليذهب آخر ليقول : لاتقيدوا الحاكم بالشورى ، فليس يجب عليه ذلك . .

أو يذهب آخر فيقول : لابد من ضرب النقاب على وجوه النساء وحبسهن فى البيوت أغلب العمر ، فلا تتعلم ولا تعبد ولا تمشى فى الأسواق . .

إن أصول الإسلام ومعاقد العبادات والأخلاق هى التى يدعى إليها ، والناس يتخيرون بعد مايعجبهم من تفاسير ووجهات نظر . .

وفى رأيى أن النموذج العلمى الذى يقدمه المسلمون هو الأساس الأول لنجاح الدعوة . .

ثم إن الدول الإسلامية الكثيرة يجب أن تتقارب وتوهى الحدود بينها ، ولا بأس أن يبدأ ذلك بأسواق مشتركة أو بتكوين اتحادات إقليمية كما تم بين دول الخليج ، ودول وادى النيل ، وما يقترح بين دول المغرب الكبير . . على أن يكون الهدف الأهم تجميع المسلمين كافة فى كيان واحد ، أو جسد روحه الإسلام .

١٠٠. إلى أي مدى يمكن أن نقتبس من هذه الحضارة المعاصرة؟

كان رجال التعليم والتربية فى اليابان أيقاظًا عندما اتصلت بلادهم بأوربا فى القرن الماضى ، أو قل : كان حراس التقاليد الموروثة صاحين عندما قررت اليابان الاستفادة من التفوق الصناعى الغربى ، فقد أعدوا لكل جديد يقتبس مكانه فوق أرضهم ، ومساحته المادية والأدبية التى لا يعدوها ، وهيمنوا ببصر حاد على الآثار المتوقعة حتى لاتفلت من أيديهم ، أو تتحرك بعيدًا عن خططهم المرسومة . .

ومع التزام هذا الخط الصارم بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات ثابتة الملامح ، فانتقلت الصناعات الغربية إلى اليابان ، ولم يتحول اليابانيون إلى أوربيين فى عقائدهم أو لغتهم أو آدابهم وأخلاقهم . .

إنهم فعلوا ولم ينفعلوا وقادوا ولم ينقادوا . .

وكانت هناك أديان بينها فجوات ، البوذية من ناحية ، والشنتوية من ناحية أخرى . . والأتباع المخلصون تتقسمهم وجهات نظر شتى ، ومذاهب فقهية كثيرة - إن صح التعبير - بيد أن لونا من المعايشة السلمية فرض نفسه على الجميع فإذا اليابانيون كلهم دون حساسيات دينية يتعاونون على إنهاض بلدهم ورفع لوائه ، وتم لهم ما أرادوا . .

إن للنجاح الحقيقى أساسًا لا يتغير . . هو النفس الإنسانية ، فإذا استقر هذا المهاد لم يبق شىء ذو بال ، وقد كان محمد ﷺ أعرف إنسان بهذه الحقيقة ، فاتجهت جهوده كلها قبل أى شىء إلى داخل الإنسان تصوغه وتضبطه وتطمئن إلى قراره ومساره ، وهو يعرف أن هذا الإنسان سوف يفرض نفسه على بيئته يومًا عندما تنزاح العوائق من أمامه . .

ولم يحاول قط الاصطدام بالأسوار الخارجية قبل استكمال هذا الداخل المهم . . ومن ثم ترك الأصنام منصوبة حول الكعبة عشرين سنة ، لم يهشم واحدًا منها فى معركة طائشة ، بل الثابت فى سيرته أنه طاف فى عمرة فى السنة السابقة حول الكعبة والأصنام جاثمة حولها ، وفى الأوضاع التى كانت عليها من بدء الدعوة . .

أكان ذلك بقيا عليها ، أو توقيرًا لها؟ . . كلا . . لقد كان يعلم أن لها أجلا لا ريب فيه ، وأنها عن قريب أو بعيد ستتحول جذاذا . .

ومن الذى يقوم بهذا التحويل الحاسم؟ الرجال الذين استناروا من الداخل ، وتربوا على التوحيد الحق . .

لقد عرفوا أن الذباب أقوى من هذه الأصنام ، وأنها لا تثبت فى معركة معه . . ألم يتلوا قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[1] .

فليتربصوا بهذه الأصنام يومًا لا ريب فيه دون استعجال ، وليهتموا بداخلهم يتعهدونه فهو الوجود الآتى مع الغد . .

ويتساءل أناس : ما هذا التعهد الشاغل المهم؟ ونقول : هو تعهد الوعى ليكون صحيحًا ، والباطن ليكون نظيفًا ، والخلق ليكون عظيمًا ، والإخاء ليكون وثيقًا ، والهدف ليكون واضحًا . . فالأمم لا تبنى بالصور وإنما تبنى بالحقائق . .

إن المنافقين أحسن الناس للمراسم ، وقلوبهم هواء . . أما المؤمنون فإن نضج نفوسهم ، وزكاة سرائرهم ، هما سر عظمتهم ، وسر مآل الأمور إليهم . .

ولا يعرف فى تاريخ الهداة رجل مثل محمد ﷺ أحسن صوغ النفوس وإيقاظ ملكاتها وإدارتها بأعظم ما فيها من طاقة ، وجعلها تدفع ولا تندفع ، وتؤثر ولا تتأثر . .

فهل نحن الدعاة المنتمين إليه نفهم هذا المنهج ، ونلتزم منطقه؟؟ . . إن الموجهين اليابانيين كانوا أذكى منا وأقدر فى مواجهة المشاكل وهزيمة الصعاب . .

نظرت بحسرة إلى «الخلق الفردى» فى الإفادة من التقدم الصناعى العالمى ، ما هذا؟ هذا شاب يقود سيارة فارهة ، تنهب الأرض نهبا ، ينزل منها بأناقة وكبرياء ، ويرمق الشارع بنظرة استعلاء ، يشترى بعض السلع ثم يمتطى سيارته ويعود من حيث جاء . .

إنه ما زاد من الناحية الإنسانية شيئًا عن الأيام التى كان سلفه يمشى فيها حافيًا أو منتعلا . . وما تشرف به أمته ولا أسرته .

(١) الحج : ٧٣ .

وهذا عامل قادم من وادى النيل ماذا حمل إلى وطنه؟ «فيديو»! إن المسكين جمد عرق جبينه وإرهاق أعصابه فى هذا الجهاز المسلى ، وسيحمله منتصب القامة والهامة لأنه أصبح به أرفع مستوى ، وما درى المسكين أنه بما يحمل نقص وما زاد . .

العرب فى الحضارة الحديثة شعوب مستهلكة تتنافس الدول الصناعية على إلهائها بالأدوات البراقة والمخترعات المريحة .

والدعاة لا يدرون كيف يستنقذون أمتهم المخروبة من هذه الأوضاع القاتلة ؛ لأنهم لا يتجهون إلى داخل الإنسان المسلم ، يحركون ماتوقف من أجهزته ، وينيرون ما أظلم من مصابيحه . . إنهم يتحركون نحو الظاهر القريب أو تحته بقليل . .

إن قدرة أمة ما على الصدارة فى الأرض ، أو توريث أمة ما قيادة العالم كما يعبر القرآن الكريم ، لا يجىء بين عشية وضحاها ، ولا يتم بخصائص سهلة ، لا أن له صلاحيات معينة أومأ إليها الوحى فى قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[1] . .

لا تظن المدى قريبًا بين ماقصه القرآن الكريم عن ذل بنى إسرائيل قديمًا ، وبين تمكينهم فى الأرض بعد ذلك . عندما توعد فرعون قوم موسى ، وجاء على لسانه . . ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾[2] . . قال موسى لقومه : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3] .

ومرت السنون ، وتغيرت الأوضاع ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾[4] إن ذلك كله لم يتم فى أيام قلائل ، إنه استغرق عشرات السنين ، حتى أمكن وفق سنن الله الاجتماعية أن يرزق العبيد أخلاق السيادة الحقيقية . .

والواقع أن العرب أيام البعثة تعهدتهم بالصقل والتهذيب يد صناع ، ومضت بهم فى طريق المجد نبوة ملهمة ، نبوة حولت الماء والطين إلى أزهار ورياحين . .

نعم إن الإسلام حول العرب إلى ربانيين بعد ما كانوا شياطين ، وجعلهم نماذج تحتذى فى ميادين العبادات والمعاملات ، فكانت قيادتهم خيرًا وبركة وكانت فتوحهم الفكرية والروحية أندى وأجدى من فتوحهم العسكرية الخارقة . .

(١) الأنبياء : ١٠٥ . (٢) الأعراف : ١٢٧ . (٣) الأعراف : ١٢٨ . (٤) الأعراف : ١٣٧ .

وعندما سقطت القيادات القديمة من الفرس والروم لم يبكها أحد ، لم يتخلف عن سقوطها فراغ يحاول الآخرون ملأه! بل الذى حدث أن الشعوب تنفست الصعداء ، ورأت أن ما جد فى ربوعها أولى بالتقدير والاحترام ، أو أولى بالرعاية والحماية .

لكن عرب اليوم على غرار آخر ، ودعك من التخلف الصناعى والحضارى ، ولننظر إلى قضايا اجتماعية وأخلاقية هى من صميم حياتنا الداخلية . .

ما تقاليد الزواج عندنا؟ هناك أعراف متبعة أن قبيلة دون قبيلة . . وأن أسرة أعرق من أسرة . . وأن مكانة امرئ ما تنبع من نسبه . . وقد ساند هذا السلوك الجائر تفكير فقهى يؤكد أن المرأة من بنى أمية أو بنى هاشم لا يرقى إلى مستواها الرجل من عرق آخر . .

أليست هذه هى التفرقة العنصرية التى جاء الإسلام لمحوها؟ هل نستطيع تصدير هذا التفكير إلى العالم؟ وهل نكون صادقين مع الله عندما نزعم أن ذلك دينه؟ . . وهل يقبله أهل الأرض منا ؟ . .

وفى أقطار كثيرة رأيت الشباب يئن من غلاء المهور ، وأحسست أن العوائق هائلة دون الحلال وأن المغريات كثيرة نحو الحرام ، فهل هذا العجز فى علاج أهم الغرائز البشرية يعد نصرا إسلاميا ، وهل رسالة أمتنا الاجتماعية تصعيب الطيبات وتيسير الخبائث ، وهل يهش العالم لتقاليدنا تلك؟ . .

ولا أمضى فى سرد أمثلة لتعثر قضايانا الإجتماعية ، وإنما أمد البصر لقضايانا الخلقية التى لن نستورد لبحثها خبراء أجانب . .

شكا لى شاب ناشئ موهوب ، وعورة الطريق أمامه ، فقلت له يائسا : امض بمواهبك إلى الأمام دون انتظار عون من أحد . . بل توقع الكيد والصد لأن البيئات التى نعيش فيها لا ترحب بالموهوبين ، ولا تؤتى كل ذى فضل فضله . . لا كارهة ، أو مغلوبة . .

أغلب الناس يعيش داخل قوقعة من نفسه ومآربه ، وقلما يلتفت إلى الآخرين ليسدى عونا ، أو يقدم يدا . .

والطريقة التى يدرسون بها الدين لا تعين على زكاة النفس وسنائها ، فالأجرب عندما يرتدى ثوبا غاليًا جميلاً قد يستر علته حينا ، بيد أن ذلك لا يشفى سقامه . هكذا نرى الذين يؤدون مراسم العبادات ، ولا يهذبون أنفسهم . .

الفارق بين الإنسان والحيوان أن الحيوان يتحرك بدوافع حاجاته الخاصة ولا يحس إلا ذاته! أما الإنسان فالمفروض أنه يحيا فى مجتمع له ضوابطه وآدابه ،

وعلى المرء أن يحس بنفسه وبغيره معًا ، والصورة الدنيا للسلوك البشرى تظهر فى أفعال المجرمين الذين لا يهتمون إلا بما يشتهون ، أما صور الرقى المنشود فتتضح كلما اختفت الأنانية ، ونما الإحساس بالغير ، والتقدير لحقوقه . .

وقد أقام الإسلام شعار «فى سبيل الله» ليخلع الإنسان من أثرته ، ويدفعه إلى ربه! فالإنفاق ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، والجهاد ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، والسعى فى هذه الدنيا ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، بل المحيا والممات جميعًا فى سبيل الله . .

وهذا الشعار يعنى فى النشاط العام أمرين : ابتغاء وجه الله ، وتحقيق المصلحة العامة ، وفقهاؤنا يرون أن حق الجماعة داخل فى كل ما هو لله ، إذ الإسلام يمزج بين الدين والدولة ، والعبادات والمعاملات . .

والذى حدث فى هذا العصر أن المقاييس الأخلاقية فى الغرب غالت فى حق المجتمع ، وقهرت به النوازع الشخصية ، وجعلت «المواطن» يرعى وطنه ، ومصلحة قومه ورفعة أمته . . إلى آخره ، وضبطت بذلك أنانيته الخاصة . .

أما المنتمون إلى الدين فإن شعار فى سبيل الله «نسى ، أو تنوسى ، فى مجال التربية»! . . وترك سرطان الأنانية يمتد ويتوغل ، فماذا كانت النتيجة؟ . . فرقة مستغربة بين مجاهدى أفغانستان ، وبين محررى فلسطين! وسيطرت المآرب على أغلب الأنشطة العامة . . فإذا الشخص الذى يعمل لوطنه فى أوربا أيقظ ضميرًا من مثيله الذى ينتمى إلى الدين ولا يفكر فى سبيل الله ، وإنما يفكر فى تنمية ثروته أو دعم مكانته . .

إن المبدأ الإسلامى الأول فى التربية وهو : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1] لا يتحقق بالدعوى ولا بالصياح ، وإنما يتحقق بتطبيق عميق حاسم فى شئون الحياة ، وبين جميع الطوائف . .

إن «ديجول» ولى نعمة فرنسا الحديثة دفن دونا! : الأدغال فى قريته ، وامرأته الفاضلة تعيش بين جدران ملجأ يرعى شيخوختها . . على حين نرى من خانوا أمتهم أو غشوها يدفنون وسط أحفال مائجة ، وتوضع فى أفواه أسرهم ملاعق الذهب ! فهل هذه مثاليات الإسلام كما نراها؟ وهل تنتصر الدعوة الإسلامية بهذا التفاوت الصارخ؟ . .

(١) الشمس : ٩ .

إن الطيبة أو التقوى أو القدرة على ميز الخبيث من الطيب وإيثار الحسن على القبيح ، كانت المشاعر التى برز بها سلفنا الأولون بل آباؤنا الأقربون . . ولقد عرفت فلاحى قريتنا وأنا صغير ينامون مبكرين بعد صلاة العشاء ، ويستيقظون مع الفجر ، فيذهبون صوب حقولهم ، وقد تذهب إليهم زوجاتهم أو أولادهم بالغداء ، فما يعودون من مزارعهم إلا مع الغروب . . وكانت أراضيهم تدر السمن والعسل ، وبركات الله تنهمر عليهم بالغدو والآصال . .

والآن بعد السهر والسمر على شتى البرامج والنوم حتى الضحى ، وإضاعة الصلاة ، واتباع الغفلات ماذا نجنى؟ . .

والسؤال نفسه مع أهل الخليج ، لقد سمعت معمرين منهم يتحدثون عن الماضى بأسى وإعزاز معا! يقولون : كنا فقراء ، ولكن الرجولة والاستعفاف وتقوى الله كانت تسود الآفاق . . إن الغد مع الشهوات الواغدة الوافدة مر الثمر . .

أريد من أمتنا أن تقتبس من حضارة الغرب ما يوافق أو يتواءم مع فطرة الله فى مواريثنا . .

ثم ماذا على الدعاة والمربين لو درسوا الأساليب التى اتبعها اليابانيون فى الاستفادة من هذه الحضارة؟ . .

ثم إن هناك خللا فى التركيب الإنسانى لأمتنا طرأ عليها مع ترادف العلل السياسية والاجتماعية ، جعل المنطق العلمى يتقهقر ، وتحل محله الأوهام ، وجعل الاكتمال النفسى يضعف وتسد فراغه بعض الشعائر وصور الطاعات . .

وعلماؤنا الكبار لم تخدعهم هذه النقائض . ولذلك رفض ابن القيم من الغنى البخيل أن يكثر الذكر ويطيل الصيام ، فعبادته الأولى العطاء! كما رفض من الداعية الجبان أن يثرثر بالأوراد ، ويعتكف بعيدًا عن الناس فعبادته الأولى الأمر والنهى والنصح .

وفى عصرنا هذا لا يخفى ما تحتاج إليه أمتنا كى تنهض من عثرتها ، وما أيسر التوفيق بين التقدم الحضارى ومواريث الدين والخلق ، والوفاء بحقوق الله . .

الفهرس